سابا

المئنيات في الادب العربي

892.709
S113muA

عيسى سابا

المغنّيات

في الأدب العربي

دار الثقافة - بيروت

بسم الله خير الاسماء

اما بعد فاليك السلسلة الرابعة من الفنون الادبية وقد بدأناها « بشعراء العشق » ثم المرأة في وحي الشعراء ثم « غزل النساء » وهذا بحث في الغناء والمغنيات وهو تابع لفن الغزل الذي ذكرناه في كتابنا السابق « المرأة في وحي الشعراء » وهي ابحاث مبتكرة لم يبحثها احد غيرنا ، في ما نزعم ، من قبل فعسى ان يروق الادباء ما اخذنا انفسنا به ويروا به ناحية جديدة في دراسة الادب ، والقصد الذي نرمي اليه اظهار التراث العربي المدفون في بطون المجاميع الادبية وهو بعيد عن متناول غير واحد من ابناء العربية وهم احق بالاطلاع عليه من سواهم ليتسنّى لهم النظر بالمجاميع الادبية اذا ارادوا التخصص وهم امل الامة والزهرات التي ننتظر ان تثمر ثمراً جنياً يانعاً في المستقبل القريب باذن الله .

بيروت في ٦ نيسان ١٩٥٤

عيسى ميخائيل سابا

ادب المغنيات

الغناء ضرب من الشعرِ ، وهو اصل له ، وما خرج عن الشعرِ وما يتبعه كالموشحات والمواليا والزجل لا يكون غناءً وانما هو ترتيل ، ويكون تلحين الاشعار على انواعه ، بتقطيع الاصوات على نسب منتظمة معروفة ، يوقّع كلّ صوت منها توقيعاً عند قطعه ، فيكون نغمة ، ثمّ تؤلّف تلك النغمات بعضها الى بعضٍ على نسب وتوقيع متعارفين فيلذّ سماعها للتناسب الذي يكون بينها .

وما من بحرِ شعرٍ ، الاّ وله لحن يتغنّى بهِ ، فهو والغناء صنوان ، لا يفترقان ، فكأنّ الشعر جسم والغناء روحه الذي تنبسط له اسارير الوجه ، ويطرب له القلب ، وهو ما استفزّ الانسان من فرح او حزن ، او حديث ، او منظر رائق ، او حديقة مونقة ، او شلاّل متدفق ماؤه صبيباً ، او نهرٍ يتراكض ماؤه هديراً .

فالغناء ، اكسير النفس ، يخفّف الاحزان ، وينسي المهموم ما به من آلام الحياة ومصائبها، وقلّ ان عبرت البشريّة زمناً بدون غناء او لحن تترنّم به ، تعبّداً او تطرّباً ، لانّه مجلبة لانبساط الاعصاب وراحة الفكر والبدن .

والانسان على تباين درجة رقيّه ، مدفوع بعامل طبعيّ الى السماع . والانفراد باعث على مدّ الصوت والترنّم ، ولا سيّما في حال الضجر وسأمة النفس ، وقد قيل : إنّ النغم فضل بقي في المنطق لم يقدر اللّسان على استخراجه ، فاستخرجته الطبيعة بالالحان ، على الترجيح ، لا على التقطيع ، فلمّا ظهرَ ، عشقته النفس ، وحنّت اليه الروح ، وقد نسب الى افلاطون قوله : « لا ينبغي ان نمنع النفس من معاشقة بعضها بعضاً » ألا ترى ان اهل الصناعات كلّها ، اذا خافوا الملالة والفتور على ابدانهم ، ترنّموا بالألحان ، فاستراحت لها جوارحهم واطمأنت اليها افئدتهم ، وليس من احدٍ إلا يطرب من صوت نفسه ، ويعجبه طنين رأسه . ولذلك نرى اصحاب الصناعات يعمدون في الكثير من الاحيان ، الى الغناء والترنّم ، ليذهبوا ما بهم من مللٍ ، تجديداً للقوى ، ولا سيّما اذا كان الصوت حسناً لأنه في ما ذكروا ، يسري في الجسم ، ويجري في العروق ، فيصفو له الدم ، ويرتاح له القلب ، وتطمئن اليه النفس ، وتهتزّ له الجوارح وتحنّ له الحركات ، وقد كرهوا ان ينام الطفل باكياً ، لئلاّ تتأتّى له

رؤى مخيفة ، تؤثر في نفسه ، فينشأ على الخوف والوسوسة . »

وكم من صوت حسن ، أنام الجفنَ ، واسكر الروح وأطرب القلب ، وكم من امهات بعثن في افئدة ابنائهنّ حنيناً ورقةً ودماثة خلق بهدهدتهنّ ، فيطمئنون للصوت الحسن ، ويتبسّمون له ، وهذا ما يدلُّ على انّ تأثير الغناء في الانسان ومطلق الحيوان والطير :

والطير قد يسوقه للموتِ إصغاؤه الى حنين الصوت

ويقال : ان القلوب تحنّ الى حسن الصوت ، وكان صاحب الفلاحات يقول : ان النحل اطرب الحيوان كلّه على الغناء ، وذكروا : انّ الابل تزداد نشاطاً وقوّةً بالحداء ، والراعي اذا رفع صوته ونفخَ في يراعته ، تلقته الغنم بآذانها ، وجدّت في رعيها .

والدابّة تعاف الماء ، فاذا سمعت الصفير بالغت في الشرب ، وليس شيء ممّا يستلذّ به اخفّ مؤونة من السماع . وغناء الانثى افعل في النفس ، وابعث على الطرب والاستفساز ، ويرى غير واحدٍ من الفلاسفة بينهم ابن رشد الاندلسيّ ، ان كمال هذا الفنّ ، في ان يكون الواضع او المؤلّف رَجُلًا ، والموقّع او المنشد امرأة ، لما في نعومة صوتها ، ورقّة جرسها ، ورشاقة ترجيعها من روعة وسحرٍ وانخطاف .

والمرأة الاديبة الحسناء ، اعلق بالنفس وأرْوَحُ للخاطر ممّن فقدت مزيّة من هاتين المزيتين : الادب والموسيقى ، فتموّجات صوتها يزيدها جمالا وإشراقاً، ويسحر السامع ، فيصغي بكلّيته لما يتساقط من بين ثناياها ، ويتمثّل في بريق عينيها ذبولا ، ولذلك كان الاقبال على القيان اكثر من الاقبال على المغنين وقد قيل :

رُبَّ سماعٍ حسن سمعتـه من حسنِ
مُقرّب مفرّحٍ مبعّدٍ من حزنِ
لا فارقاني ابداً في صحّةٍ وبدنِ

وما اريد في عرضي هذا من تأريخ الغناء ، تأريخاً صحيحاً معدّلاً لما في نشأته من غموض كتَرْ به الشعر ، وما يقال بشأنه فهو ضرب من الترجيم بالغيب، وان كانت بَعض المصادر الاديبيّة ذكرت اسماء مَنْ غنّ في الجاهلية ، من رجالٍ ونساء ، فهو ممّا لا نقدر ان نأخذ بهِ او نرتاح اليه على القطع ، والرواة فيما نعلم يخلطون ويخترعون . والغناء والشعر صنوان ، فاذا عرف تاريخ احدهما عرف الآخر :

تغنّ في كلّ بَيتٍ أنتَ قائلهُ ،
إن الغناءَ ، لهذا الفنّ مضمارُ ،

ولست في ما انتدبت نفسي اليه مؤرّخاً وإنما انا عارض

أدب المغنيات اللواتي اصبن حظاً من الادباء فذكروهنّ. فبأدبهنّ وما وقع لهنّ نستدلّ على ناحية من نواحي العصر الذي عشنَ فيه، ونلمس ما كان فيه من متعٍ ولذاذاتٍ، واوّل ما يعرض لنا من هذا البحث:

العصر الجاهلي

ان العصر الجاهليّ الذي وصلنا أدبه، وما وقع فيه من اخبار، بطريق الرواية، قد جرّحه علماء الادب وعدّلوه، حتى استقام ما نقلوه فقالوا: إنّ اوّل منْ غنّت من النساء في الجاهلية بُعاد وثماد ومن غنائهما:

يا أمّ عثمان، نوّلينا، قد نفق النائلُ الطفيف(١)

وذكروا اسماء جملة من القيان، منهنّ امّ عمرو وفيها يقولُ شاعرٌ جاهلي:

صددتِ الكأسَ عنّا، أمّ عمروٍ،
وكان الكأسُ مجراها اليمينا،

---

(١) نولينا: اعطينا، النائل: الاخذ، الطفيف: الكثير

وقد اشتهرت في هذا العصر ايضاً ، قينتان للنعمان بن المنذر يقال لهما الجرادتان كما ذكرت بعض مجاميع الادب وقد غنّتا :

ألا ياقين، ويحك قم فهيمنْ ،
لعلّ اللهَ ، يسقينا ، غماما ،

على ان ما ذكر ابو الفرج الاصفهاني غير هذا، قال : ان عبد الله بن جدعان كان سيداً جواداً من قريش وكانت له مغنيتان هما الجرادتان وقد غنت كلّ منهما شعراً لابي فرعة الكناني :

أقفر من اهله مصيف ... فبطن نخلة فالمصيف
هل تبلغّني ديارقومي ... مهرية سيرهـا زفيف
اعمامها الصيدمن لؤي ... حقاً واخوالهـا ثقيف

وقد قيل فيهما :

غنتّاني الجرادتان صباحاً ،
فكأني شربت كأس الدنانِ ،(١)

وليس يعنينا من امر مالكهما شيئاً . وإنما الذي اردناه غناءهما وادبهما

---

(١) اسند الشاعر فاعلان الى فعل واحـد وهي لغة ضعيفة يعبر عنها النحاة بلغة « اكلوني البراغيث »

ومن القيان اللواتي تغنين بشعر حسان بن ثابت ، بهوة واسماء وقد انشدت هذه الاخيرة :

بيضُ الوجوه « كريمة احسابُهم ،
شمُّ الانوف ، من الطراز الأوّل ،
يسقون من ورد البريص عليهم ،
بردى يصفق بالرحيق السلسل ، (١)
ولقد شربتُ الخمر في حانوتها ،
صهباء ، صافيةً كطعم الفلفل ،
يسعى عليَّ بكأسها متنطف ،
فيعلّني منها ، ولو لم أنهل ،
إن التي ناولتني فرددتُها ،
قُتِلَتْ ، قُتِلتَ ، فهاتها ، لم نُقتَلِ ،

وذكروا اسماء مغنيات كثيرات ، لا يعنينا ذكر اسمائهنّ إنْ لم يكن لهنّ ما غنين به من الشعر ،

ولا يُنكر ، انّ الغناء الجاهليّ ، كان فيه خشونة الصحراء

---

(١) البريص : فرع من نهر بردى في دمشق يصفق يضرب كفاً بكف وهو استعارة لهدير الماء ، . الرحيق : الخمرة البيضاء

وصفير الريح ، ورغاء الابل ، لانّ الانسان يتأثر بطبيعة محيطه ، ادبياً ومادياً ، وقيل : الانسان ابن بيئته ، يأخذ عنها ويعطيها ، ولأمرٍ ما يكثر الترجيع في الغناء العربيّ ، فهو يشبه ترجيع صفير الهواء في الصحراء . وما يلقي علينا ضوءاً ولو ضئيلاً عن الغناء في الجاهلية ما جاء في معلّقة طرفه قوله :

ندماي بيض كالنجوم وقينة ... تروح علينا بين بردٍ ومجسد
اذانحن قلنا اسمعينا انبرت لنا ... على رسلها مطروقة لم تشدّدِ
اذارجّعت في صوتها خلت انها ... تجاوب أظآرٍ على رُبع رد

هذا ما يثبت لنا عناية الجاهلية في القيان والسماع اليهن ، ممّا يدلّ على ان الغناء طبيعة في النفس عرفها الانسان منذ وجوده .

العصر الاموي

من مغنيات هذا العصر ، عزّة الميلاء ، وكان يألفها الاشراف وغيرهم من اهل المروآت ، واليها نُسب :

منع الحياة عن الرجال ونفعها ،
حدقٌ ، تُقلّبُها النساء مراضُ (١)

---

(١) حدق جمع حدقة وهي سواد العين الاعظم ، مراض نعت حدق .

وكأنّ افئدة الرجال ، اذا رأوا ،
حدق النساء لنيلها أغراضُ (١)

ومنهنّ : جميلة مولاة بني سليم ، اخذ عنهـا معبد وابن عائشة ، وسلامة وعقيلة والشماسيتان : خُليدة وربيعة .

وفي هذا العصر ، كانت العصبية العربيـة ، لا تزال آخذة برؤوس القوم فما تجرّدوا عن عاداتهم في الصحراء بل مزجوها بما تساقـط اليهم من عادات الامم الذين صاروا في ذمـة العرب الفاتحين واصبح من الطبيعيّ ان يكون الغناء مزيجاً من لحن صحراويّ ولحن حضريّ يجمع بين نسيم الجنائن الغنّـاء وصفير الصحراء . ولعلّ جميلة كانت ممّن جمع بين هذين الضربين ، وجميلة هذه شيخة الغناء الحجازي كانت جارية لبني سليم وزوجهـا من موالي الانصار فسميت مولاة الانصار ، وقد حبّبَ اليهـا الغناء ما كانت تسمعه من الحـان سائب خاثر وكان جاراً لمولاهـا ، فحذقت ألحانه وغنّت عليها شعراً كانت تحفظه وما زالت تعـالج الالحان حتى اصبحت صاحبة مذهب غنائي عُرفت به .

ومن خبرها :

ان معبـداً ومالـك بن ابي السمح ذهبا اليها ، فأذنت لهما بالدخول ، فدخلا ، فأخرجت اليهما رقعة فيها ابيات . وقالت :

---

(١) افئدة جمع فؤاد : قلب .

بعث بهذه الرقعة اليّ فلان لأغنّي بها .

فانشدت :

إنما الزلفاء ، همّي ، فليدعني ، مَن يلومُ ،

معبد :

أحسنُ الناس جميعاً ، حين تمشي ، وتقوم ،

جميلة :

حبّب الزلفاءَ عندي ، مَنطقٌ ، منها رخيمُ ،

معبد :

أصِل الحبل ، لترضى ، وهي للحبلِ ، حزومُ ،

جميلة :

حبُّها في القلبِ داءٌ ، مستكنٌ ، لا يريم (١)

ومن خبرها ايضاً ما يأتي ، قيل : جلست جميلة يوماً للوفادة عليها ، وجعلت على رؤوس جواريها شعوراً ، مسدّلة ، كالعناقيد الى أعجازهنّ ، وألبستهنّ انواع الثياب . المصبّغة ، ووضعت فوق الشعور التيجان ، وزينتهنّ بأنواع الحليّ ، ووجّهت الى عبدالله بن جعفر تستزيره ، وقالت لكاتبٍ أملت عليه ما يأتي : « بأبي انت وامّي ، قدرك يجلّ عن رسالتي ولكنّ كرمك يحتل

---

(١) لا يريم : لا يبرح

زلّتي ، وذنبي لا تقال عثرتُهُ ، ولا تغفر حوبته ، فان صفحت ، فالصفح لكم معشر اهل البيت يؤثر ، والفضل فيكم مدّخر ، ونحن العبيد وانتم الموالي ، فطوبى لِمن كان مقارباً ، والى وجوهكم ناظراً ، وطوبى لكم مجاوراً ، ويعزّكم قاهرا ، وبضيائكم مبصرا ، والويل لِمَن جهل قدركم ، ولم يعرف ما أوجبه الله على الخلق لكم ، فصغيركم كبير ، بل ، لا صغير فيكم ، وكبيركم جليل ، بل الجلالة التي وهبها الله عزّ وجلّ للخلقِ ، هي لكم ومقصورة عليكم ، وبالكتاب نسألك ، وبحقّ الرسول ، ندعوك . ان كنت نشيطاً لمجلسٍ هيّأته لك ، لا يحسن إلاّ بك ، ولا يتمّ إلاّ معك . ولا يصلح ان ينقل عن موضعه ، ولا يسلك بهِ غير طريقه »

فلمّا قرأ عبدالله الكتابَ قال : إنّا لنعرف تعظيمها لنا ، واكرامَها لصغيرنا وكبيرنا ، وقد علمت أنهّا قد آلت ، أن لا تغنّي احداً إلاّ في منزلها .

والتفت الى الرسول وقال : والله قد كنت على الركوب الى موضع كذا وكذا ، فاني جاعل بعد رجوعي ، طريقي عليها ، فلمّا صار الى بابها ، أدخل بَعض من كان معه اليها ، وصرف بعضهم ، فنظر الى الحُسنِ البارع والهيئة الباذّة (١) ،

---

(١) هيئة باذة : فيها تواضع في اللباس وعدم التبجح

فاعجبه ووقع من نفسه . فقال : يا جميلة لقد اتيتِ خيراً كثيراً ، ما أحسن ما صنعتِ !

– سيّدي ، إن الجميل للجميل يصلح ، ولكَ هيّأت هذا المجلس . فجلس عبدالله بن جعفر ، وقامت على رأسه ، وانتصبتِ الجواري صفّين ، فأقسم عليها ، فجلست غير بعيد . ثمّ التفتتْ اليه وقالت : يا سيدي ألاَ أُغنيك ؟

– بَلى . فغنّت

بني شبيبةِ الحمدِ الذي ، كان وجهُهُ ،
يضيء ظلامَ اللّيل ، كالقمرِ البدرِ ،
كهولُهُم ، خيرُ الكهولِ ونسلُهم ،
كنسلِ الملوكِ ، لا يبورُ ، ولا يجري(١)
ابو عتبة الملقي اليك جمالَهُ ،
أعزُّ ، هجانُ اللّونِ ، من نفرٍ زُهرِ (٢)
لساقي الحجيجِ ، ثمّ للخيرِ هاشمٍ ،
وعبدِ منافٍ ، ذلك السيّد الغمرِ ،

---

(١) لا يبور : لا يهلك ، لا يجري : لا ينقص ،
(٢) هجان بالكسر من الناس الحسيب الكريم ومن الابل البيض الكرام. اي بيض اللون

أبوكم قصيّ كان يُدعى مجمّعا ،
به جمعَ اللهُ ، القبائلَ من فهرِ ،

فقال عبدالله : احسنتِ يا جميلة ، واحسنَ خذافة ما قال ، بالله ، أعيديه عليّ .

فأعادته ، فجاءَ الصوت أحسنَ من الارتجال ، ثمّ دعت لكلّ جاريةٍ بعودٍ ، وأمرتهنّ بالجلوس على كراسٍ صغارٍ ، قد أعدتها لهنّ ، فضربنَ ، وغنّت عليهنّ هذا الصوت ، وغنّى جواريها على غنائها .

فلمّا ضربنَ جميعاً ، قال عبدالله : ما ظننت أنّ مثل هذا يكون ، وإنّهُ لمِمّا يَفتُن القلبَ ، ولذلك كرهه كثير من الناسِ لِما علموا فيه ...

الحكم في الغناء

ويؤخذ من قول صاحب الاغاني ، أنّ الناس في ذلك العهد كانوا يتذوّقون الغناء ، ويفاضلون بين جيّده ورديئهِ ، ويُباينون بين صوتٍ وآخر ، وهذا ما يَدلُّ على احساسٍ رفيعٍ وذوقٍ سنيّ .

من ذلك ما حدّثنا به قال : جاءَ سُندةُ الخياط المغنّي الى الافلح المخزوميّ ، وكان يوصف بعقلٍ وفضلٍ .

فقال له : أينَ اقبلتَ ، والى أينَ تمضي ؟

ـ اليك قصدت من مجلسٍ لبعض القرشيين ، أقبلتُ محاكماً اليك

ـ فيماذا ؟

كنت عند هذا الرجلِ ، وحضرتْ مجلسَه رقطاءُ الحبطيين ، وصفراء العلقميين ، فتناولتا بينهما رَسَلَ ابن سريج :

ليتَ شعري ، كيف أبقى ساعةً ؟
مع ما ألقى ، اذا اللّيل حضر ،
مَن يَذُق نوماً ، ويهدأ ليلةً ،
فلقد بُدِّلتُ ، بالنوم السَّهر ،

فغنّتاه جميعاً ، : فاختلفتا في تفضيلهما ، ففضّل كلّ فريقٍ منّا احدهما ، فرضِيتا جميعاً بحكمك ، فاحكم بينهما وبيننا .

فوجم ساعةً ، واهل الحجاز ، اذا ارادوا ان يحكموا تأمّلوا ساعةً ثمّ حكموا ، فاذا حكم المحكّم مضى حكمه ، كائناً ما كان ، ففضّل من فضّله ، وأسقط مَنْ اسقطه ، اذا تراضى الخصمان به . فكره الافلح ان يُرضي قوماً ويسخط آخرين . فقال لسندة:

صفهما لي كيف كانتا ، اذا غنّتا ، واشرح لي مذهبها فيه ، كيف سمعت ، ثمّ انا احكم بعد ذلك ؟

– أمّا جارية الحبطيين ، فانّها كانت تلوك لحنه ، كما يلوك الفرس العتيق لجامه ، ثمّ تلقيه في هامة لَدْنه ، ثمّ تخرجه من منخرٍ أغنّ . والله ما ابتدأتُهُ فتوسطته ، وأنا اعقلُ ، ولا فرغت منه ، فما أفقتُ إلاّ وأنا اظنّ اني رأيته في نومي .

وأمّا صفراء العلقميين ، فانها احسنها خلقاً واصحّها صوتاً ، وألينها تثنياً ، والله ما سمعها احد قطّ فانتفع بنفسه ولادينه . فهذا ما عندي ، فاحكم انت يا اخا بني مخزوم .

قال : قد حكمت بانها بمنزلة العينين في الرأس ، بايها نظرت ابصرت ، ولو كان في الدنيا من عُبَيد بن سُريج خلف لكانتا ، وانصرفوا جميعاً راضين بحكمه .

رأيهم في الغناء

قالوا : المصيب المحسن من المغنين والمغنيات ، هو الذي يشبع الألحان ، ويملأ الانفاس ، ويعدّل الاوزان ، ويفخّم الالفاظ ، ويعرف الصواب ، ويقيم الاعراب ، ويستوفي النُّغَمَ

الطوال، ويحسّن مقاطيع النُّغم القصار ويصيب اجناس الايقاع، ويختلس مواقع النبرات ، ويستوفي ما يشاكلها في الضرب من النقرات .

هذا رأيهم بصحّة الغناء ، ومنه نعلم ما كان عندهم من معرفة بالاصوات ومخارجها ، والألحان وما فيها من ترجيع وهَدْهَدة ، وامّا الآلات فسنعرض الى ذكرها في ختام هذا البحث .

تقسيم في السماع

قسموا السماع ثلاثة اقسام :

١ – الحرام المحظور ، وهو الاكثر عند الناس من الشبّان والشابات ، ومن غلبت عليهم شهواتهم ولذّاتهم ، وتكدّرت بواطنهم ، فرغبوا في دنياهم اكثر من الآخرة ، ففسدت مقاصدهم ، ولا يتحرّك منهم إلاّ ما هو الغالب عليهم وعلى قلوبهم ، من الصفات المذمومة ولا سيما في الزمن الذي تتفشى به الرذيلة وتسوء الاخلاق ، وينحط التهذيب .

٢ – المباح ، وهو ما يقصد منه التلذذ بالصوت الحسن لانتعاش الروح ، وإراحة البدن ، او تذكّر الغائب او التسلية

من حزنٍ او سأم .

٣ ـ المندوب اليه ، وهو ما قُصِد فيه حبّ الله والشوق اليه ، فلا يحرّك منه السماع إلا الصفات المحمودة . والغناء المتزن الذي لا يثير مكامن الشهوة ، ويبعث على مكارم الاخلاق ، من اصطناع المعروف ، وصلة الرحم ، والذبّ عن الاعراض ، والتجاوز عن السيئآت ، وقد يبعث على البكاء نَدماً على خطيئةٍ فيرقّقَ القلب ويجلوه ، او تذكّر محبوب مفارق فتتراخى الاعضاء ويشرد الفكر اليه وقد نُقِل : أنّ جارية فارقها صاحبُها سعياً وراء الرزق فكانت تأخذ العود وتضرب اليه متغنية ، فما سمِعها أحدٌ إلاّ بكى :

أما النهارُ ، فمستهامٌ والهٌ ،
وجفون عيني ، ساجفاتٌ تدْمعُ (١)
والليلَ قدأرعى النجومَ ، مفكّراً ،
حتى الصباح ، ومقلتي لا تهجعُ (٢)
كيف اصطباري ، عن غزالٍ شادنٍ ؟
في لحظِ عينيه ، سراجٌ يلمعُ ،

(١) ساجفات : مدرات الدموع وهي استعارة من سجف البيت ارسل عليه السجف ، الستارة
(٢) تهجع : تنام .

وبياضُ وجهٍ ، قد أُشيب بحُمرَةٍ ،
في وجنتيه ، كأنه مستجمِعُ ،
والقدُّ منه ، كالقضيب اذا زَها ،
والغصنُ ، في قنوائه يترعرعُ (١)
تمّت خلائقُه ، وأكملَ حسنُه ،
كمثال بَدرٍ ، بعد عشرٍ ، أربعُ ،

وفي تذكّرِ الحبيب تقول احدى جواري الفضل بن الربيع،

أهدى الحبيب مع الجنوبِ سلامَهُ ،
فاردُدْ اليهِ ، مع الشّمال سلاما ،
واعرِفْ بقلبك ، ما تضمّن قَلبُهُ ،
وتداولا ، بهوا كما ، الايّاما ،
وادا بكيتُ له ، فأيقنَ أنّهُ ،
ستجودُ ، ادمعُه عليك ، وهاما ،
فاحبسْ دموعَك ، رحمةً لدموعه ،
إنْ كُنت تحفظُ ، او تحوطُ ذِماما ،

---

(١) يترعرع : ينمو

نادرة

نسب الى جميلة المغنيّة نوادر جمّةً منها : أنّها جلست يوما ولبست برنساً طويلا ، وألبست من كان عندها برنساً دون ذلك وكان في القوم ابن سريج ، وكان قبيح الصلع ، قد اتخذ وفرة شعرٍ يضعها على رأسه ، وأحبّت جميلة ان ترى صلعته ، فلما بلغ البرنس الى ابن سُريج قال: دبّرت عليّ وربّ الكعبة وكشف صلعته ووضع القلنسوة على رأسه ، وضحك القوم من قبح صلعته ثم ان جميلة قامت ورقصت وضربت بالعود وعلى رأسها البرنس الطويل ، وعلى عاتقها بردة يمانية ، وعلى القوم امثالها ، وقام ابن سريج يرقص ، ومعبد وابن عائشة ومالك والقريض ، في يد كل واحدٍ منهم عود يضرب بهِ على ضربِ جميلة ، فغنّت وغنّى القوم معها :

ذهبَ الشبابُ ، وليتَه لم يذهبِ ،
وعلا ، المفارقَ ، وقع شيبٍ مُضرَبِ (١)

---

(١) مفارق مفرده مفرق وهو مكان فرق الشعر في الرأس .

والغانيات ، يردن غيرَك ، صاحباً ،
ويعدنَك الهجرانَ ، بعد تقرّبِ (١)
إني أقول مقالةً بتجاربٍ ،
حقاً ، ولم يخبرك مثلُ مجرّبِ ،
صافي الكريمَ ، وكنْ لعِرضك صائناً ،
وعن اللئيم ومثلِه ، فتنكّبِ (٢)

فأنت ترى مما تقدّم أن المرأة المغنية كانت تعقد حفلات انسٍ وتجلس الى الرجالِ يتطارحون فيها الغناء ، وفي المغنيات من كنّ شاعراتٍ ملحّنات كفضل الشاعرة ، وقد ذكر القاسم بن عبدالله الحرّ اني قال : كنت عند سعيد بن حميد الكاتب ذات يومٍ ، وقد اقتصد ، فاتته هدايا « فضل الشاعرة » الف جدي والف دجاجة ، والف طبقِ رياحين وطيب وعنبر ، وغير ذلك .

فلمّا وصل ذلك كلّه ، كتب اليها : إنّ هذا يوم لا يتمّ سروره إلاّ بك وبحضورك ، وكانت احسن الناس ضرباً بالعود ، واملحهم صوتاً ، واجودهم شعراً ، فأتته فضُرِب بينه وبينها حجاب ، واحضر قوماً ندماءه ووضعت المائدة ، وجيء بالشراب

---

(١) الغانيات مفرده غانية : وهي التي استغنت بجمالها عن الزينة .
(٢) تنكب : ابتعد

فلمّا شربوا أقداحاً ، اخذت عودها ، فغنت بهـذا الشعر ، وهو والصوت لها :

يا مَنْ أطلتَ تفرُّسي
في وجهه ، وتنفّسي (١)
أفديك مِنْ متدلّلٍ ،
يزهو ، بقتلِ الانفسِ ،
هبني أسأتُ ، وما اَسأ
تُ ، بَلى ، أقولُ : أنا المُسي ،
أحلفتني ، أن لا أسا
رِق نظرةً ، في مجلسي ،
فنظرتُ نظرة عاشقٍ ،
أتبعتُها ، بتنفّسي ،

ونسيتُ أنّي قد حلفتُ ، فما يُقالُ لِمَنْ نسي ، وضربتْ على العودِ وغنّت :

عاد الحبيبُ الى الرضا ،
فصفحتُ عمّا ، قد مَضى ،

---

(١) تفرس : اطال النظر

منْ بعدِ ما لصدودهِ ،

شَمِتَ الحسودُ ، فعرَّضا (١)

تعِسَ البغيضُ ، فلم يزلّ ،

لصدودنا ، متعرّضا

هبْني أسأتُ ، وما أسأتُ ، فانْ أسأتُ ، لكَ الرضا

ومن المغنيات خليدةُ ، الفتاة اللّعوب ، المغناج ، المتثنيّة تثني الغصن في النسيم العليل ، قد غنّت في مجلس جميلة :

ألا يامَنْ يلوم على التصابي ،

أفِقْ شيئاً ، لِتسمعَ من جوابي (٢)

بكرتَ تلومني ، في الحب جهلا ،

وما في حبِّ مثلي ، منْ معابِ

أليس من السعادة غير شك ،

هوى متواصلين على اقترابَ

كريمٌ نال ودّاً ، في عفاف ،

وسترٍ في منعّمةٍ ، كعاب

وما دمنا نبحث في العصر الاموّي ، لا بدّ لنا من ان

---

(١) صدود : جفاء بعد اي الاعراض عن الشخص

(٢) التصابي : الميل الى الصبوة وهي جهلة الفتوة

نصوّر العصر بأدبه وملاهيه ، معتمدين في ذلك كتب التاريخ والادب ، وما تساقط من اخبار المغنيات ، ولعلّ ما نقصّه من امر يزيد وحبابة ، يعطينا فكرة جلّية ، نتمثّل فيها حالة العصر وما كان فيه من مُتَعٍ ولهوٍ سواء في القصور او الدور، فالمرأة تطلب وتستهوي ، والرجلُ وراء لذّته يَسعى ، والرجلُ والمرأة واحد في ما يشتهيان ويرغبان ، لذّة ومتعة ، ورعشة وانخطافاً .

يزيد وحبابه

وقبل ان نقصَّ عليك خبرها لا بدَّ لنا من ان نتعرَّف اليها قالوا : انها كانت جارية من جواري المدينة ، وقيل انها كانت لابن « رمّانة » وقيل لابن « مينا » وقيل انها كانت لامرأة تدعى « لاحق المكّية » اخذت الغناء عن ابن سريج وابن محرز ومعبد وجميلة وعزّة الميلاء ومن خبرها ما قصته كتب الادب، حدّثنا الرواة قالوا : كان يزيد بن عبد الملك من خلفاء الدولة الامويّة يعشق جارية له تدعى حُبابه ، عرفها مغنيّة جميلة الصوت، رشيقة القامة ، خفيفة الحركات ، في وجهها حُسنٌ ، وفي عينيها ذبول ساحر، فاشتهاها ثمَّ أحبَّها ، وأخلص لها الحبَّ كلّه ، حتى انه كان يخاف ان تموت .

وحبابة هذه كانت تسمّى العالية ، وهي من مولدات المدينة حلوة ، ظريفة ، حسنة الغناء ، طيّبة الصوت ، ضاربة بالعود ، اشتراها يزيد بالف دينار ، قبل ان يرقى عرش الخلافة ، وبلغ ذلك سليمان خليفة الامويين ، فهمّ بالحجر عليه ، لسفهه وانفاقه هذا المبلغ الباهظ في شراء جارية ، فتدبّر للامر يزيد وخشي العاقبة ، فردّها الى مولاها على غير رضىً منه .

ومات سليمان بعد قليل ، فصفا الجوّ ليزيد ورقي عرش الخلافة ، وكانت له زوجة ذكيّة نبيهة تسمّى سُعْدة ، تعرف مكانة الجارية « العالية » من قلبه ، وتعلم أنّه لا بدّ من انّ يطلبها ، فاشترتها واهدته اياها ، فلما حصلت له ، انفرجت اسارير وجهه ، وعظم قدر سُعدة عنده ، وأطلق على العالية اسم حبابة .

وكانت سُعدة ، زوجة يزيد ، قد اخذت على حبابة عهداً أنها توطىء لابنها عنده في ولاية العهد ، وتحضرها بما تحبّ ، وبقيت حبابة ، اثيرة عند يزيد ، كافاً بها يلازمها في طعام وشراب وغناء ومنام ، وكان رجال بنى اميّة يلومونه على استهتاره ، وتعلّقه بهذه الجارية فيردّهم ولا يسمع لهم ، وكانت هي من ناحية أخرى ، لا تُدرِك شيئاً من مصالح الامّة ، او مصالح الخلافة ، وما يهمّها من الامر ، وهى تطلب لذّتها وتشبع نهمها ، فكانت

تظهر من الحركات النسائية ضروبا ، لتجذبه اليها وتعلقّه بها .

ويروى أنّ مسلمة ، أقبل عليه ذات يومٍ يلومه في الالحاح على الغناء والشراب ، وقال له : لقد ولّيت بعقب عمر بن عبد العزيز وعدله ، وتشاغلت بهذه الأمةِ عن النظرِ في امور الرعيّة ، والوفود ببابك ، واصحاب الظلامات يصيحون ، وانت غافل عنهم .

فقال يزيد : صدقت والله ، وترك الشراب ولم يدخل على حبابة أياماً .

فدسّت حبابة الى الاحوص ان يقول ابياتاً في ذلك ووعدته ، ان ردّ الخليفة عن رأيه ، تمنحه الف دينار ، فنظم الاحوص ابياتاً ، ودخل على يزيد وأنشده :

ألا ، لا تلمه اليوم ، ان يتلبّدا ،
فقد غلب المحزون ، ان يتجلّدا ،
بكيت الصبا ، جهدي ، فمن شاء لامني ،
ومَنْ شاء آسى في البكاءِ وأسعدا ،
وإنّي وإنْ فنّدتُ في طلبِ الغنا ،
لأعلم أني ، لستُ في الحبّ أوْحدا ،

إذا أنت لم تعشق، ولم تـدرِ ما الهوى،
فكنْ حجراً، من يابسِ الصخرِ جلمدا،
فما العيش إلاّ، ما تلذّ وتشتهي،
وإنْ لامَ فيه، ذو الشنانِ وفنّدا(١)

فلم يتحرّك يزيد الى حبابة بهذا الاغراء، وبقي اسبوعاً، لا يطلبها، فلمّا كان احد الايّام قالت حبابة لبعض جواريها اذا خرج امير المؤمنين، الى الصلاة، فأعلمنني، فلمّا اراد الخروج أعلمتها، فتلقته والعود في يدها، فغنّت البيت الأول «ألا لا تلمه» فغطّى يزيد وجهه وقال: مه، لا تفعلي.

ثمّ غنّت: «فما العيش الا ما تلذّ وتشتهي» فعدل اليها وقال: صدقتِ والله، قبّح الله مَنْ لا مني فيـك، وصاح بالغلام قائلًا: قُلْ لمسلمة أن يصلّي بالناس، وأقام معها يشرب وتغنّيه. ونحن لا نقدر ان نمرّ بهذه الرواية من غير تعليق، وفيها رأينا اثر المرأة وقد سحرت بغنجها ودلالها الخليفة فأوقفته عن صلاته بالجماعة، فآثر المتعة بها على اللهِ والناس، فلا عجب ان نحن رأينا انتفاض الناس مـن حول الملوك وانزالهم منزلة الشعب ودكّ عروشهم ومحوّ ذلك الظلّ الذي طالما تغنّوا بهِ

---

(١) الشنان: البغض

وقالوا : إنهم ظلّ الله على الارضِ ، وما اضعف ذلك الظلّ الذي تستهويه امرأة وتخضعه لارادتها ، وتتلاعب بهِ ، تسحره بفتور عينيها ودِلّها وميلانها وحركاتها الباعثة على الشبق ، فتنسيه العدل والمُلْكَ والعباد، فيا لخُدعة الابد وحُكم القدرِ والقوّة . وهذه :

حبابة وسلامة

كان ليزيد جارية أُخرى تحكم الضرب والغناء اكثر من حبابة ، تدعى سلامة . ولكنّ حبابة كانت احظى منها عند يزيد وكان يشهد كذباً بفضلها عليها . فقيل : إنهما اختلفتا في غناء هذا البيت :

وترى لها دَلاً ، اذا نطقت بهِ ،

تركت بناتِ فؤادِهِ ،صعَرا (١)

فقال يزيد : من أين جاء اختلافكما ؟ والصوت لمعبد ، ومنه اخذتماه .

---

(١) صعر : امال عنقه الى احد الشقين

حبابة : هكذا أخذته .

سلامة : هكذا أنا أخذتُه ، وأخذي أصحُّ مِنْ أخذِها .

ـ لله قد اختلفتما ومعبد حيّ ، فامر يزيد ان يكتب الى عامله في المدينة ان يبعثَ معبداً اليه .

فلما دخل معبد ، لم يسأله الخليفة عن الصوت ، بل أمره ان يغنّي ، فغنّى :

فياعزّ ، انِ ، واشٍ وشى بي عندكم ،
فلا تكرميه ، أنْ تقولي له : مهلا ،

فاستحسنه الخليفة وطرب ، ثمّ قال : إنّ هاتين الجاريتين قد اختلفتا في صوتٍ لكَ فاقضِ بينهما . فقال لحبابة : غنّي فغنّت

وقال لسلامة : غنّي فغنّت .

فقال : الصواب ما قالت حبابة

فقالت سلامة : واللهِ يابن الفاعلة ، إنّك لتعلم أنّ الصواب ما قلتُ ، ولكنّك سألت ، أيهما آثر عند امير المؤمنون ؟ فقيل لك حبابة ، فاتبعت رضاه وهواه ، فضحك يزيد وطرب ، وأخذ وسادة فصّيرها على رأسه وقام يدور في الدار ، ويرقص ويصيح السمك الطري اربعة ارطال عند بيطار حيّان ، فدار الدارَ كلها ثم رجع فجلس في مجلسه ، وأنشأ هذين البيتين :

أبلغْ حبابة ، أسقى ربعَها المطرُ
ما للفؤادِ ، سوى ذكراكم ، وطرُ
إن سار صحبيَ ، لم املك تذكّرَكم ،
او عرَّسوا ، فهمومُ النفسِ والسهرُ ، (١)

فغنّاهما معبد وطرب يزيد

ويؤخذ من مجرى هذه الرواية وما بعدها أنَّ امر تدبير الرعيّة لم يكن همه كثيراً بقدر ما كان يلتفت الى ملاذّه واستهتاره وما يؤيّد هذا القول الرواية ، الآتية :

موت حبابة

ذكر صاحب الأغاني قال : أنْ نزلَ يزيد بن عبدالملك بيت رأس في الشام ، ومعه حبابة ، فقال : زعموا انه لا تصفو لاحدٍ عيشة يوماً الى اللّيل إلاَّ كدَّرها شيء عليه ، فسأجرّب ذلك ، ثمَّ قال لِمَنْ معه : اذا كان غد ، فلا تخبروني بشيءٍ ، ولا تأتوني بكتاب ، وخلا هو وحبابة ، فأتيا بما يأكلان ويشربان ، فأكلت

---

(١) التعريس : نزول الركب ليلاً للراحة من وعثاء السفر

حبابة رمّانة فشرقت بحبّة منها ، فماتت .

فأقام ، لا يدفنها ثلاثة أيام ، حتى تغيّرت وأنتنت ، وهو يشمّها ويرشفُها ، فعاتبه على ذلك ذوو قرابته ، وعابوا عليه ما يصنع ، وقالوا : قد صارت جيفة بين يديك ، فأذن لهم في غسلها ودفنها ، فأخرجت في نطع وخرج معها لا يتكلّم ، حتى جلس على قبرها ، فلمّا دفنت قال : اصيحت والله كما قال كثيّر :

فان يسلُ عنكِ القلبُ ، او يدعِ الصبا ،

فبالياس ، نسلو عنكِ ، لا بالتجلُّدِ (١)

فما قام إلاّ خمس عشرة ليلة حتى دفن الى جانبها .

ولم تقتصر المغنيات على قصور الخلفاء فقد شارك في ذلك الاثرياء وسواد الناس اذا كانوا في بسطة من العيش ، ممّا يدلّ على ان العبث والمرح هما شأن من شؤون الناس عامّةً ، فما من نفسٍ حيّة إلاّ وتشتهي السماع والطرب . فينسى الملك مهامّ الحكم ، فلا شيء يقف امام طرب النفس .

ولم يقف الغناء في العصر الاموي ، وفنّه لمّا يستكملْ بعد ، فسار متصلاً بما بعده من العصور ، فبقيت حلقاته متتابعة بين

---

(١) اليأس قطع الرجاء . التجلد . التصبر .

ضرب على العود ونقر على الدفّ وصفق الصنج ومدّ الصوت .

ولم يخلُ عصرٌ من غناء انثى وهزّ ردفٍ وتمايل خصر وغمزة عين وبسمة ثغر ، وفي ما نسوق من الاخبار دليل على ما قدمنا قطعاً .

المغنية مليحة

حدثنا صاحب المحاسن والاضداد قال : كان عليّ بن الجهم في مجلس محمد بن عمرو بن مسعدة ، فأقبلت جارية كأنها البدر ليلة التمام ، بلونٍ كأنها الدرّ في البياض مع احمرار خدّين ، كشقائق النعمان فسلّمت :

فقال لي محمّد : يا ابا الحسن ، هذه الجنّة التي كنتم توعدون ، فقالت :

وما الوعد ، يا سؤلي ، وغاية منيتي ،
فانّ فؤادي ، من مقالك ، طائرُ ،

فقال لها محمّد :

أما وإلهِ العرشِ ، ما قلتِ سيّئاً ،
وما كان ، إلاّ ، أنّني لكِ شاكرُ ،

فقال ابن الجهم :

أمسكْ ، فديتُكَ ، عن عتاب محمّدٍ ،
فهو المصونُ ، لودّهِ المتحاذرُ ،

فأقبلت تحدّثنا ، فاذا عقلٌ كامل ، وجمال فاضل ، وحسن قاتل ، وردف مائل . فقلت : لقد أقرّ الله عيناً تراكِ ، فقالت : أقرّ الله اعينكم ، وزادكم سروراً وغبطة ، ثمّ اندفعت تغنّي بنغمة ، لم أسمع احسنَ منها :

أروح بهمٍ ، من هواكِ مبرّحٍ ،
أناجي بهِ قلباً ، كثيرِ التفكّرِ ،
عليكِ سلامٌ ، لا زيادةَ بيننا ،
ولا وصلَ ، إلاّ أنْ يشاءُ ابنُ معمرِ ،

فما زلنا يومنا هذا معها ، في غبطةٍ وهناء ، فما ذكرتها بعد ذلك إلاّ اشتقت لها ، وأسفتُ عليها ، وتمنيت لو أني لصيقُها . وما سقنا هذه النادرة إلاّ لنبيّن شيئاً من ادب المغنيات وما كنّ يتمتعْنَ بهِ من عبث الرجال بهنّ ومرحِ الايّام وتذوّقٍ للادب والفنّ .

والطبقة الكادحة ، ما كانت لتنعم بمثلِ هذه المجالس ، فالفقير

فقير في كلِّ عصرٍ ومِصر ، يرى بعينيه ويتألّم في قلبه ، والدنيا فريسة القويّ المقتدر ، والفقير ان تمتّع فبسماعٍ عابرٍ او نظرٍ حائر وذكر بارح . وهذه شادن :

ومن أخبارها ، ما رواه محمد بن حمّادٍ قال : كنّا يوماً عند اسحاق بن نجيح ، وعنده جارية يقال لها «شادن» موصوفة بجودة الضرب على العود ، وشجو صوتٍ ، وحسن خلق ، وظرف مجلس ، وحلاوة وجه ، أخذت العودَ وغنّت :

ظبيٌ تكامل في نهايةِ حسنِه ،
فزها ببهجتهِ ، وتاه بصدّهِ ،
فالشمسُ ، تطلعُ من فِرندِ جبينه ،
والبدرُ ، يغرقُ في شقائقِ خدّهِ ،
ملك الجمالَ بأسرهِ ، فكأنّما ،
حسنُ البريّةِ كلّها ، مِن عندهِ ،
يا ربِّ ، هَبْ لي وصلَهُ وبقاءَه ،
أبداً ، فلستُ بعائشٍ مِنْ بعدهِ ،

فطارت عقولنا ، وذهلت ألبابنا من حسن غنائها وظرفها .

فقلتُ : يا سيّدتي ، من هذا الذي تكامل في الحسنِ والبهاءِ سواكِ ؟ فقالت :

فانْ بحتُ ، نالتني عيونٌ كثيرةٌ ،
وأضعفتُ عن كتمانِه ، حين أكتمُ ،

وقد اخبر الشعبيّ قال : دخلت على بشر بن مروان ، وهو والي العراق لأخيه عبد الملك بن مروان، وعنده جارية في حجرها عود ، فلمّا دخلتُ ، أمرها فوضعت العود ، فقلت له لا ينبغي للامير ان يستحي من عبده .

قال : صدقت ثمّ قال للجارية ، هات ما عندك ، فأخذت العود وغنّت :

وممّا شجاني ، أنها يوم ودّعتْ ،
تولّتْ ، وماء العينِ في الجفنِ ، حائرُ ،
فلمّا اعادت من بعيدٍ بنظرةٍ ،
اليَّ ، التفاتاً ، أسلمتهُ المحاجرُ ،

فقلتُ : الصغير أكيسهما ، أريد «الزير» (١) وقلت : يا هذه أرخي من بمّكِ وشدّي زيرَكِ ،

فقال لي بشر : ما علمك ؟
ـ أظنّ العمل فيهما .

---

(١) الزير : اسم لاحد اوتار العود وكذلك البمّ .

قال : صدقت ، ومَنْ لم ينفعه يقينه . لم ينفعْه يقينُه

وما يدلّنا على غرام القوم بالغناء وحبّهم للسماع الحكاية التالية :

عبدالله الملقّب بالقِس وسلاّمة .

وسلاّمة جارية من جواري المدينة قد نشأت على الغناء وطبعت عليه فاتصلت بكبار المغنين تأخذ عنهم ومن اخبارها ما يأتي :

كان عبدالله الملقب بالقس عند اهل مكة بمنزلة عطاء بن ابي رباح في العبادة ، فمرّ يوماً بسلاّمة وهي تغنيّ ، فقام يستمع غناءها ، فرآه مولاها .

فقال له : هل لك ان تدخل فتسمع ؟

ـ لا

ـ الغناء خمرة الروح وجلوة الصدر .

فدخل وقال : اوقفني في موضع بحيث أراها ولا تراني ، ففغنّت سلاّمة صوتاً أطربه واعجبه . فقال له مولاها : هل لك في ان احوّلها اليك ، فأبى ذلك عليه ، فما زال به حتى أجابه ، وما زال يسمعها ويلاحظها النظر حتى شغف بها ، ولمّا شعرت

للحظه اياها ، غنّته :

رُبَّ رسولين ، لنا بلّغا ،
رسالة ، من قبلِ أنْ يبرحا ،
لم يعملا خِفّاً ولا حافراً ،
ولا لساناً ، بالهوى مفصحا .
حتى استقلاّ ، بجوابيهما ،
بالطائر الميمون ، قد أنجحا ،
الظرف والطرف ، بعثناهما ،
فقضّيا حاجاً ، وما صرّحا ،

وفي الروايه أنّه تركها وتاب الى الله تعالى ، ورجع الى طريقته التي كان عليها من الزهد والتقوى والذِكر

ابن ابي عتيق

قال عبدالله ابن جعفر لابن ابي عتيق : لو غنّتك فلانة جاريتي صوتاً ، ما ادركتك ذكاتك ، (١)

— قل لها تفعل ، وليس عليك ، إنْ متُّ ، ضمانٌ . فأخذه

(١) نفسك

بيده عبدالله وادخله منزله ، ثمّ أمرَ الجارية فخرجت وقال لها : هاتي ، فغنّت :

بهواك صيّرني العزول نِكالا ،
وجدَ السبيلَ ، الى المقالِ ، فقالا ،
ونهيتُ نومي ، عن جفوني ، فانتهى ،
وأمرتُ ليلي ، أن يطولَ ، فطالا ،

وممّا يُروى عن ابن ابي عتيّق ايضاً الخبر الآتي : وصف عبدالله بن جعفر لعبد الملك بن مروان ، انّ ابن ابي عتيّق مُقِلّ وكثير العيال ، فأمر عبد الملك بن مروان ، ان يبعث به اليه ، فأتاه ابن جعفر بما دار بينه وبين عبد الملك ، وبعثه اليه .

فدخل ابن ابي عتيّق على عبد الملك ، فوجده جالساً بين جاريتين قائمتين من يمينه ويساره ، تميسان كغصني بانٍ ، بيد كلّ جارية مروحة تروّح بها ، قد كُتِبَ على كلّ مروحة ما يأتي :

إنّني اجلب الرياحَ ، وبي يلعب الحَبَبْ ،
وحجاب ، اذا الحبيب ثنى الرأسَ للقُبَل ،
وغياثٌ اذا النديم تغنّى او ارتجلْ ،

وفي الثانية :

أنا في الكفِّ لطيفه ، مسكني قصرُ الخليفه ،
انا لا اصلحُ إلاّ ، لظريفٍ او ظريفه ،
او وصيفٍ حَسنِ القدِّ شبيهٍ بالوصيفه ،

فلمّا نظر ابن ابي عتيّق الى الجاريتين ، هوّنتا الدنيا عليه ، وأنستاه سوء حاله ،

وقال : ان كانتا من الانس ، فما نساؤنا إلاّ من البهائم ، وكان كلمّا كرّر بصره فيهما تذكّر الجنّة ، فاذا تذكّر امرأته وكان لها محبّاً ، تذكّر النار .

وبدأ عبد الملك يتوجّع اليه بما حكى له ابن جعفر عنه ، ويخبره بما له عنده ، من جميل الرأي .

فأكذب له ابن ابي عتيق كلّ ما حكاه له ابن جعفر عنه ، ووصف له نفسه بغاية الطمأنينة والراحة وحسن الحال ، واتّصل الخبر بعبدالله ابن جعفر ، فجاءه وقال له : ما حملك على أن كذّبتني عند امير المؤمنين ؟

ـ أفكنت تراني ، تجلسني بين شمسٍ وقمر ، ثمّ أتفاقر ، لا واللهِ ، ما رأيت ذلك لنفسي ، وإن رأيته لي . فأعلمَ عبدُ اللهِ بذلك عبدَ الملكِ .

فقال عبدُ الملكِ : الجاريتان له .

فلمّا صارتا الى ابن ابي عتيق ، قام يقصد عبد الله بن جعفر زائراً ، فوجده قد امتلأ فرحاً ، وهو يشرب ، وبين يديه عسّ فيه عسلٌ ممزوج بمسكٍ وكافورٍ فقال له : مهيمْ ، قدْ والله قبضت على الجاريتين .

– إشرب

فتناول العسّ فجرعَ منه جرعةً ،

فقال له عبد الله ، زِدْ ، فأبى ،

والتفت عبدالله الى جارية له ، كانت تغنّيه وقال لها : ان هذا ، وقد اشار الى ابن ابي عتيق ، قد حاز اليوم غزالتين من عند امير المؤمنين ، فخذي في نعتهما ، فحرّكت الجارية العود ثمّ غنّت :

عهدي بها ، في الحيّ قد جردتْ ،
صفراء ، مثل المهرة الضامرْ (١)
قد حجم الثدي ، على نحرها ،
في مشرقٍ ، ذي بهجةٍ ناضرْ ،

---

(١) الضامر : القليل اللحم

لو أسندتْ ميتًا ، الى صدرها ،
قام . ولم يُنقلْ ، الى قابر ،
حتّى يقولَ الناسُ ، ممّا رأوا ،
يا عجباً ، للميت من ناشرْ ،

فلمّا سمع ابن أبي عتيق الابيات ، طرب ، ثم تناول العسّ فشرب عللًا بعد نهلٍ ، ورفع عقيرته وغنّى ،

سقوني ، وقالوا لا تُغنّي، ولو سقوا ،
جبالَ حُنبُنٍ ، ما سقوني ، لغنّتِ

الزلفاء

نسوق هذه القصة لنبيّن اثر الغناء ومفعوله في النفوس ، ونصوّر حالة العصر وما كان عليه ارباب الثراء والحكم من متعة ولذاذة ، فكأن الحياة كانت كأساً وعوداً وانثى يحسّها اصحاب الثراء الذين آتتهم الدنيا خيراتها ونالوا حظوة في قلوب منْ تولّوا أمر الرعيّة فتحكموا بالعباد ، وراحوا وراء طلب اللذة يتراكضون ، يبذلون الغالي والنفيس ثمن جارية تذيقهم تفّاح الجنان غضاً لبداً ، وتسكرهم بحسن طلعتها فتنسيهم الدنيا وما فيها

والواجب وما انتدبوا انفسهم اليه من ذلك ما اخبر به ابو سويد قال : حدثني ابو زيد الاسدي قال : دخلت على سليمان بن عبد الملك وهو جالس في ايوان مبلّط بالرخام الاحمر ، ومفروش بالديباج الاخضر ، في وسط بستان ملتفٍّ قد اثمر واينع ، وعلى رأسه وصائف كل واحدة منهنّ احسن من صاحبتها ، وقد غابت الشمس ، وغنّت الاطيار فتجاوبت ، وصفّقت الرياح على الاشجار ، فتمايلت ، فقلت : السلام عليك أيّها الامير ورحمة الله وبركاته ، وكان مطرقاً فرفع رأسه ،

وقال : ابا زيدٍ ، في مثل هذا الحين تصاحبنا ؟

ـ اصلح الله الامير ، او قامت القيامة ؟

ـ نعم ، على اهل المحبّة .

ثمّ أطرق مليّاً ورفع رأسه ، وقال : ابا زيد ما يطيب في يومنا هذا ؟

ـ اصلح الله الامير ، قهوة حمراء (١) في زجاجة بيضاء ، تناولها غادة هيفاء ، مضمومة لفتاء ، أشربها من كفها وامسح

---

(١) القهوة الحمراء : الخمرة

فمي بخدّها .

فأطرق سليمان مليّاً ، لا يردّ جواباً ، تنحـــدر من عينيه عبرات بلا شهيق ، فلما رأت الوصائف ذلك تنحين عنه ، ثمّ رفع رأسه ، فقال : أبا زيد، حضرت في يومٍ فيه انقضاء اجلك ومنتهى مدّتـك ، وتصرمّ عمرك ، والله لأضربنّ عنقـك او لتخبرني ما أثار هذه الصفة من قلبك ؟

– اصلح الله الامير ، كنت جالساً عند دار أخيك سعيد بن عبد الملك ، فاذا أنا بجارية قد خرجت من باب القصر كأنها غزال انفلت من شبكة صيّاد ، عليها قميص اسكندرانيّ يبيّن منهـا بياض بدنها وتدوير سرّتهـا ونقش تكتها ، وفي رجلها نعـلان صرّاران قد اشرق بيـاض قدميها على حمرة نعليهـا بذوءابتين تضربان الى حقويها ، لها صدغان كأنهما نونان وحاجبان قد قوّسا على محاجر عينيها ، وعينان مملوءتان سحراً وانف كأنه قصبة بلور وفم كأنه جرح يقطر دماً وهي تقول عباد الله من لي بدواء ما لا يشتكى وعلاج ما لا يُسمّى ، طال الحجاب وابطأ الجواب ، والقلب طائر والعقل عازب ، والنفس والهة والفؤاد مختلس ، والنوم محتبس ، رحمة الله على قومٍ عاشوا تجلدا وماتوا كمدا ، ولو كان الى الصبر حيلة او الى ترك الغرام سبيل لكان امراً جميلا . ثم اطرقت طويلًا ورفعت رأسها ، فقلت لهـا : ايتها

الجارية إنسية انت ام جنيّة؟ سماوية انت ام ارضية ؟ فقد اعجبني ذكاء عقلك ، وإذهلني حسن منطقك ، فسترت وجهها بكمها كأنها لم ترني ثم قالت : اعذر ايّها المتكلم فما اوحش الساعد بلا مساعد ، والمقاساة لصبٍّ معاند ثم انصرفت ، فوالله ما أكلت طعاماً طيّباً إلاّ غصصت به لذكرها ، ولا رأيت حسناً الاّ سمج في عيني لحسنها فقال سليمان : أبا زيد ، كاد الجهل يستفزّني والصبا يعاودني والحلم يعزب عنّي لشجو ما سمعت ، إعلم يا أبا زيد ، ان تلك التي رأيتها هي الزلفاء التي قيل فيها :

إنما الزلفاء ، يا قوتة ،
أخرجتْ من كيس دَهقان ،

شراؤها على أخي الف الف درهم ، وهي عاشقة لمِن باعها ، والله ان مات ما يموت إلاّ بحبّها ، ولا يدخل القبر إلا بغصتها ، وفي الصبر سلوة وفي توقيع الموت نهيه ، قم أبا زيد في دعة الله تعالى ، ثمّ قال يا غلام نقله ببدرة فأخذتها وانصرفت .

وما سقنا هذه القصة الا لنبين ما كان يبذل الامراء في سبيل ملاذهم ، والرعية كادحة مسكينة تعمل ، وتقدّم لمِن لا يخدمها بعشر معشار ما تنعم عليه من اموالٍ ، وتبذل في سبيله وسبيل مرضاته وما كان هذا في العصر الذي نحن فيه بل تخطاه الى العصر العباسي وما بعده ، ولا عجب فحياة الرغد ينشأ عنها الانغماس

في الشهوات ، وهذا الرغد لم يكن الا في قصور الحكّام ومن ولّوا امور الرعية . فألهتهم الانثى عن كل ما حولهم فانطرحوا بين يديها يترشفون رحيق الحياة نهلةً نهلة .

العصر العباسي

تخلّف العصر الاموي وقد عرضنا الى ذكر نخبة من مغنياته وننتقل الى العصر العبّاسي ، وفيه امتزج العرب بالعجم وتكوّنت بين سواد الناس والخاصة عادات ، دعت اليها حياة الترف ، وصار للعرب مذاهب في الغناء خاصة ، واصبح هذا الفنّ علماً قائماً بنفسه ، فعمدوا الى تدوينه ، فالّف فيه يونس بن سليمان ، وقد أخذ عن معبد ، ووضع الخليل بن احمد كتاباً في الموسيقى ، قيل : انه وضع فيه اصناف النغم ، وحصر به انواع اللحون ، وحدّد ذلك كلّه ، ولخّصه ، وذكر مبالغ اقسامه ، ونهايات اعداده وقد ضاع تأليفه ، كما ضاع تأليف يونس ، والذين ألّفوا بذلك كثرٌ ، عدّدهم ابن النديم في فهرسته ، وعنهم اخذت المغنيات

الجواري والغناء

وقد دعا الشغف بالغناء تعليمه الجواري ، للتمتّع بغنائهنّ

ومنظرهنّ معاً .

ودعا هذا الفنّ الى تعلم الادب ، لانّ الناس كانوا يتغنون بالشعر كشعر عمر بن ابي ربيعة ، وبشّار ومسلم بن الوليد ، وابي العتاهية وغيرهم ، وكان من الطبيعيّ ان المغنية ، لا تحسن الغناء وتوقيع اللحن ، إن كانت لا تحفظ كثيراً من الشعر وتجيد مخارج الحروف .

وقد نشأ فيهنّ مَنْ كُنّ يغنين بما يخترعن من شعر وصوت ، وذكرت المصادر الادبيّة ، ان عريب المغنية كانت تروي الجوراي الاشعار ، ليتغنين بها وعريب هي شيخة الغناء العبّاسي كما كانت جميلة شيخة الغناء الحجازي ، وتواترت الروايات بشأن اتصالها بالخلفاء والعظماء والقوّاد ، وفيها تباين في صحة نسبها وحياتها ، والمعوّل عليه أنها ابنة جعفر بن يحيى البرمكي ، قد ابتذل حجابها بعد نكبة البرامكة على الارجح .

وذكر المبرّد في كتابه « الكامل » قال : « حدّثني الجاحظ عن ابرهيم بن السندي قال : كانت تصير اليّ « هاشمية » جارية « حمدونة » في حاجات صاحبتها ، فاجمع نفسي لها واطرد الخواطر من فكري ، وأحضر ذهني جهدي ، خوفاً من ان تورد عليّ ما لا افهمه لبعدِ غورها واقتدارها ، على ان تجري على لسانها ما في قلبها ، وكذلك ما يؤثر عن « خالصة » و « عتبة » جاريتي

« ريطة » بنت ابي العبّاس »

وذكر المسعودي : انه كان للمتوكل جارية تسمّى « محبوبة » كانت لرجلٍ من اهل الطائف ، قد ادّبها وثقّفها وعلّمها صنوف العلم ، وكانت تحسن كلّ ما يحسنه علماء النّاس . وذكر صاحب الاغاني ايضاً : انه كان لابن رامين منزل في الكوفة ، وله جوار مغنيات ، اشهرهنّ ، سلامة الزرقاء وكان اجلّ مُقيّن (١) بالكوفة ، يجتمع في بيته الفتيان للسماع والشراب ، ويقولون فيه وفي قيناته الشعر ، وممّن كان يختلف اليه روح بن حاتم المهلبي ، ومحمّد بن الاشعث ومعن بن زائدة ، وابن المقفّع وامثالهم ، يسمعون وينفقون عن سعةٍ ، وينشدون اشعار الغزل ، ولما خرج ابن رامين حاجّاً بجواريه ، بكى الشعراء لخروجه ، ووصفوا لوعتهم من فرقة مجلسه ، كما وصفوا كثرة الناس الذين كانوا يغشون بيته ، وقد قال احدهم :

أيّة حالٍ ، يا ابن رامين ،
حالُ المحبين المساكين ،
تركتهم موتى ، ولم يتلفوا ،
قد جُرّعوا منك الأمرّين ،

---

(١) المقين : معلم الجواري والمتاجر بهن

وسرتَ في ركبٍ ، على طيّةٍ ،
ركبِ تهـامٍ ويمانين ،
يا راعي الذود ، لقد رعتهم ،
ويلك ، من روع المحبين (١)
فرّقتَ جمعاً ، لا يرى مثلهم ،
بين دروب الرومِ والصين ،

وغنّت صاحبة جعفر بن خالد البرمكيّ :

عزمتُ على قلبي ، بأن اكتمَ الهوى ،
فضجّ ونادى ، أنني غير عاقـلِ ،
فإنْ حان موتي ، لم أدعْك بغصّتي ،
وأقررتُ قبل الموتِ ، أنّك قاتلي ،

وذكروا : ان جارية الباقي أنشدت في مجلس عمرو بن مسعدة :

يا أحسنَ العـالمِ حتّى متى ؟
يرتفـع الحبُّ وأنحَطُّ ،
وكيفَ منجايَ ، وبحر الهوى ،
مُذْ حَفَّ بي ، ليس له شـطُّ ،

---

(١) الذود : القطيع من غنم ونحوه ، رعتهم : اخفتهم .

فأجيبت :

يُدركك الوصلُ ، فتنجو بـه ،
أو يقـع البحرُ ، فتنحَـطُّ ،

من اغانيهن

ولي كبـدٌ ، مقـروحةٌ مَـنّ يبيعنى ،
بها كبداً ، ليست بـذاتِ قروحِ ،
أباها عـليَّ الناسُ ، لا يشترونها ،
ومَـنْ يشتري ، ذا علّةٍ بصحيـحِ ،
أئِنُّ من الشوقِ الذي بجـوانحي ،
أنين غصيصٍ ، بالشراب قريـحِ ،

ومما أنشدن قول يزيد بن معاوية :

نالتْ على يـدِها ، ما لم تنلْـهُ يدي ،
نقشاً على مِعصَـمٍ أوهتْ بهِ جلدي ،
كأنّـه طرقُ نمـلٍ في انامِلـها ،
أو روضة ، رصّعتهـا السحبُ بالبرد ،

خافت على يدِها، من نَبلِ مُقلَتِها،
فألبستْ زَنْدَها ، دِرعاً مِن الزردِ ،
إنسيةٌ لو رأتْها الشمسُ ، ما طلعت ،
مِنْ بعدِ رؤيتِها ، يوماً على أحَدِ ،
سألتُها الوصلَ، قالتْ أنتَ تعرِفُنا،
مَنْ رامَ مِنّا وصالا ، مات بالكمدِ (١)
فكم قتيلٍ لنا ، في الحبِّ ، مات جوى ،
مِنَ الغرامِ ، فلم يبدِ ، ولم يَعِدِ ،
فقلتُ : استغفر الرحمّان من زلَلٍ ،
إنَّ المحبَّ قتيلُ الصبرِ والجلَدِ ،
قد خلَّفتني طريحاً ، وهي قائلةٌ ،
تأمَّلوا ، كيف فِعلُ الظبي بالاسدِ ،
قالتْ لطيفِ خيالٍ زارني ومضى :
باللهِ صِفْهُ ، ولا تنقصْ ولا تزِدِ
فقالَ خلَّفتُه ، لو ماتَ مِنْ ظمأ ،
وقلتُ ، قِفْ عن ورودِ الماءِ لَمْ يَرِدِ ،

---

(١) الكمد : الحزن

قالتْ صدقتَ الوفا ، فالحبّ شيمتُهُ ،
يابَردَ ذاكَ الذي قالت : على كبدي ،
واسترجعتْ سألتْ عنيّ ، فقيل لها ،
ما فيه من رمَقٍ ، دقّت يداً بيَدِ (١)
واستمطرتْ لؤلؤاً ، من نرجسٍ وسقتْ ،
ورداً ، وعضّت على العنّاب بالبرَدِ ، (٢)
هم يحسدوني على موتيَ ، فوا أسفي ،
حتّى على الموتِ ، لا أخلو مِنَ الحسدِ ،

القيان في القصور

إنّ مَنْ يلقي نظرة على القصور العبّاسيّة من خلالِ ما في الادب وتاريخه ، ويمعن النظر في تضاعيف المجاميع ، يجد ما كانت عليه الدولة في إبّانِ أيامها الأُوَل ، من رخاءٍ وبحبوحة عيش ، ومن أموالٍ متدفّقة تحمل من الآفاق البعيدة ، الى

---

(١) رمق بقية الروح في الجسد

(٢) العناب ثمر احمر يشبه حب الزيتون استعير الى الشفة ، البرد ، كرات ماء صغيرة متجمدة استعيرت الى الاسنان

بغداد، بلد العلم والادب ، بلد المرح والعبث ، بلد الشعر والغناء، بلد الجواري والقيان .

هذا قصر يُشرف على دجلة ، تميس فيه الجواري دلالاً وغنجاً ، يرقصن ويغنين ، ضاربات على الاعواد ، وناقرات على الدفوف ، انغاماً تذهل السامع وتسكره ، وهذه روضة صفّت فيها الأرائك ، عليها المغنيات يبعثن في ملءِ الفضاء أصواتهن ، يَستميل الاثرياء والاغنياء ، فتتناثر الدنانير ثمناً وتُحمَل الواحدة تلوى الاخرى الى الدور ، متعةً وقرّة عينٍ ، ومن أقوالهم : «عجبت لمن استمتع بالسراري كيف يتزوّج الحرائر» .

ولعلّ ما نقصّه صورة لحياة ترفِ القصور ، والاستمتاع بالسماع وما يتبع من ادب المغنيات .

حدّث الاصمعيّ قال : بعث هارون الرشيد وهو بالرقّة ، يطلبني ، فحُمِلت اليه ، فانزلني الفضل بن الربيع ، ثمّ ادخلني عليه وقت الغروب ، فاستدناني وقال : يا عبد الملك ، وجهت اليك بسبب جاريتينِ ، أهديتا إليّ ، وقد اخذتا طرفاً من الادب ، احببتُ ان تبرزَ ما عندهما وتسير على الصوابِ فيهما ، ثمّ امر باحضارهما ، فحضرت جاريتان ما رأيتُ مثلهما قطّ ، فقلت لواحدةٍ منهما : ما عندك من العلمِ ؟

– ما امر الله في كتابهِ ، ثمّ ما ينظر فيه الناس من الاشعار والاخبار .

فسألتها عن حروف القرآن ، فأجابتني كأنّها تقرأ في كتاب الله ، ثمّ سألتها عـن الاشعار والاخبار والنحو والعروض فما قصّرت عن جوابي في كلّ فَنٍّ أخذت فيه . فقلت لها : أنشدينا شيئاً ، فانشدت :

يا غياث البلاد في كلّ محلٍ ،
ما يريدُ العبادُ ، إلاّ رضاك ،
لا ومن شرّف الامام وأعلى ،
ما أطاعَ الالهَ ، عبدٌ عصاك ،

فقلت : يا امير المؤمنين ، ما رأيت امرأة في نسكِ رجـل مثلها وخبرت الثانية ، فوجدتها دونها ، فأمر ان تصنع تلـك الجارية لِتُحْمَلَ اليه ، في تلك الليلة .

ثمّ قال لي : يا عبد الملـك ، أنا ضجرٌ ، وأحبُّ ان تسمعني حديثاً ممّا سمعتَ من أعاجيب الزمان ، نفرّج بهِ .

ففلت : يا امير المؤمنين ، كان لي صاحب في بدوِ بَني فلان ، وكنت أغشاه ، واتحدث معه ، وقد اتت عليه ستّ وتسعون

سنة ، وهو اصحّ الناس ذهناً ، واقواهم بدناً ، فغبت عنه ، ثمّ أتيته ، فوجدته ناحل البدنِ ، كاسف البال فسألته ، عن سبب تغيّره ؟

فقال : قصدت بعض القرابة ، فالفيت عندهم جارية ، قد طَلتْ بالورس بدنَها ، وفي عنقها طبل تنشد عليه :

محاسنُها سِهامٌ للمنايا ،
مُريّشة بانواع الخُطوبِ ،
ترى ، ريبَ المنونِ ، بهنّ سهماً ،
تُصيبُ بنصلهِ ، مُحَّ القلوبِ ،

فقلتُ :

ففي شفتي من موضعِ الطبلِ ، ترتعي ،
كما قد ابحتِ الطبلَ من جيدِك الحسن ،
هَبيني عوداً ، جوفه تحت متنِه ،
يمتّعني ، ما بين نحرِكِ والبدَنْ ،

فلمّا سمعت شعري ، رمت بالطبل في وجهي ، ودخلت الخيمة ، فوقفت حتى حميت الشمس على مفرقي ، ولم تخرج

فانصرفت قريح العين ، فهذا التغيّر من عشقي لها .

فضحك الرشيد حتى استلقى ، وقال : ويلك يا عبد الملك ابن ستّ وتسعين يعشق ؟

قلت : قد كان هذا ، يا امير المؤمنين .

وما سقنا هذه الرواية على ما فيها من مبالغة إلاّ لنبيّن ما كان نصيب الجواري المغنيات من العناية في امر تعليمهنّ علوم ذلك العصر ، وقد كان عصر أدبٍ وشعرٍ وغناءٍ ومجون الى غير ذلك . ومن اخبار الرشيد انه بعث في طلب ذات الخال وقد مضى الليل الاّ اقلّه فحضرت اليه ، فوضعها في حجرة وقال لها : غنّي فغنّت بما لا يتفق مع العروض :

اما تعلم ذات الخال فوق الشفه العليا
بأني لستُ اهوى غيرها شيئاً من الدنيا
واني عن جميع الناس إلاّ عنهم اعمى
واني لوسقيتُ الدهر من ريقك لا اروى

فطرب الرشيد وترنح سكراً ممّا سمع :

ومن المرويّ ايضاً ، ما حدّث به عليّ بن الجهم قال : لمّا

افضت الخلافة الى المتوكّل ، أهدى اليه الناس على أقدارهم ، فأهدى اليه ابن طاهر ، جارية اديبة تسمّى « قبيحة » تقول الشعر وتلحّنه، وتحسن من كلّ علمٍ احسنه ، فجلّت من قلب المتوكل محلًا جليلًا ، فدخلت يوماً للمنادمة ، فخرج المتوكل وهو يضحك وقال : يا عليّ ، دخلتُ فرأيتُ «قبيحة» قد كتبت على خدّها بالمسك جعفر ، فما رأيت احسن منه ، فقل فيه شيئاً ، فسبقتني واخذت عودها وغنّت :

وكاتبةٍ بالمسكِ في الخدّ جعفرا ،
بنفسي ، خطّ المسكِ ، من حيث أثّرا ،
لئن أودعتْ سطراً ، من المسك خدها ،
لقد اودعت قلبي ، من الوجدِ أسطرا ،
فيا مَنْ لمملوكٍ ، يظلُّ مليكه ،
مطيعاً له ، فيما أسرَّ وأجهرا ،
ويا مَنْ لعيني ، منْ ، رأى مثل جعفرٍ ،
سقى الله صوبَ المسكراتِ لجعفرا ،

قال : فنقلتُ خواطري ، حتى كأني ما أُحسنُ حرفاً من الشعرِ ، وقلت للمتوكل : أقِلَّ ، فقد واللهِ غربَ عني ذهني ، فلم يزل يعيّرني به .

ثمّ دخلت عليه للمنامة بعد ذلك فقال ياعليّ أعلمت اني غاضبتُ « قبيحة » وكان يسميها « محبوبة » وأمرتها ان تلتزم مقصورتها ، ومنعت اهل القصرِ من كلامها .

فقلت : ياسيدي ، إن غاضبتها اليوم ، فصالِحْها غداً . ولمّا كان من الغد دخلت عليه فقال : ويحك ، ياعليّ رأيت البارحة في النوم كأني صالحتُ « محبوبة » (قبيحة) فقالت جاريته «شاطر» ياسيدي لقد سمعت الآن في مقصورتها هينمة .

فقام المتوكلّ وقال : ننظر ما هي ؟

فقام حافياً حتى وصلنا مقصورتها فاذا هي تغنيّ :

ادورُ في القصر ، كي أرى احـداً ،
اشكوا اليه ، فلا يكلّـمني ،
فمَن شفيـع لنا . الى مَلكٍ ،
قد زارني ، في الكرى ، يعاتبني ،
حتى اذا ما الصباحُ عادَ لنا ،
عادَ الى هجره ، ففارقني ،

فصفّق المتوكلّ طرباً ، فلمّا سمعته ، خرجت تقبل رجليه ، وتمرّغ خدّها في التراب ، حتى اخذ بيدها راضياً عنها ، فيالكرامة

المرأة وبالحريتها ، اين كانت الحركة النسائية في ذلك العصرِ ، فلِمَ لم تطالب ولو بجزءٍ من حقّها ؟ أما كانت المرأة سلعة تباع وتشترى ، ولا تُقتنى إلاّ للمتعة او الخدمة ؟...

ومن المرويات الادبيّة ، عن غرام الخلفاء العباسيين ومَن نادمهم ، مايأتي :

قيل كان الواثق اذا شربَ رقد في موضعه الذي شرب فيه ، ومَن كان معه من ندمائه وشرب رقد ولم يخرج ، فشرب يوماً وخرج من كان عنده ممّن لم يشاركوا بالشراب ، إلاّ مغنياً واحداً شرب واظهر التراقد ، وكانت مغنية من حظايا الواثق نائمة ، فلمّا خلا المجلس ، كتب المغنيّ رقعة ورمى بها اليها فاذا بها:

إنيّ رأيتك في المنام ، ضجيعتي ،
مسترشفاً من ريقِ فيك البارد ،
وكأنّ كفّك في يدي وكأننا ،
بتنا جميعاً ، في لحاف واحدِ ،
ثمّ انتبهتُ ، ومنكباك ، كلاهما ،
في راحتي ، وتحت خدّكِ ساعدي ،
فقطعتُ يومي كلّه متراقداً ،
لأراكِ في نومي ، ولست براقد ،

فكتبت اليه على ظهرها تقول :

خيراً رأيتَ ، وكل ما امّلته ،
ستناله منيّ ، برغمِ الحاسدِ ،
وتبيت بين خلاخلي ودمالجي ،
وتحلّ بين مراشفي ، ونواهدي ،
ونكون انعمَ عاشقين ، تعاطيا ،
مُلحَ الحديث ، بلا مخافةِ راصدِ ،

فمن هذه الرواية نعلم ما كان يحدث في قصور بغداد ، وليس ذلك عجباً ، والارواح جنود مجنّدة ، ما كان منها متآلفاً اتحد وما كان منها متخالفاً تنافر ، والحياة بما فيها غمزة عين وبسمة ثغرٍ ، وقبلة ولقاء ثمّ فراق ابديّ ، لا رجعة بعده ، الى ان تكوّن الارض جسمين تتآلف روحاهما وتتحدان

باب الذهب

وحدّث عليّ بن الجهم عن نفسه قال : قلت لقينة :

هل تعلمين وراء الحبِّ منزلة ؟

تُدني اليك، فان الحبَّ اقصاني (١)

فقالت : تأتي من باب الذهب ، وأنشدت :

إجعلْ شفيعك منقوشاً تقدّمه ،

فلم يزلْ مدنياً، مَنْ ليس بالداني ،

ومن جميل مطارحات المغنيات وحضور ذهنهنَّ ما يأتي : قيل إنَّ اشعث كان يختلف الى قينة بالمدينة ، فجلس عندها يوماً ، يطارحها الغناء ، فلمّا ارادَ الخروج قال لها : ناوليني خاتمك أذكرك بهِ

قالت : إنَّه ذهبٌ ، وأخاف ان تذهبَ ، ولكن خذ هذا العود فلعلّك تعود ، فناولته عوداً من الارض، وقالت : هو لك وللذكرى أبقى ، فانّه لا يباع ولا يشرى ،

من اغانيهن

حمامات اللوى

ألا ياحمامات اللوّى ، عُدنَ عودةً ،

فأني الى اصواتكنّ حزينُ

---

(١) تدني : تقرب . اقصاني : ابعدني

فعدنَ على أيكٍ ، فكدنَ يمتني ،
وكدتُ بأسراري ، لهنَّ أبينُ (١) ،
دعونَ فريقاً ، بالهدير كأنما ،
شربن الحميّا ، او بهنَّ جنونُ
فلم ترَ عيني ، مثلهنَّ حمائماً ،
بكينَ ، ولم تدمع ، لهنَّ عيونُ ،

الا ياصبا نجد

ألا ياصبا نجدٍ ، متى هجتَ من نجدِ ؟
فقدزادني مسراكِ وجداًعلى وجدي(٢)
لقد هتفت ورقاءُ ، في رونقِ الضُحى ،
على فننِ الاغصان بالبان والرندِ (٣) ،
بكت مثلَ ما يبكي الوليد صبابةً ،
وأبدتْ من الاشواقِ مالم أكن أبدي ،

---

(١) الأيك : نوع من الشجو
(٢) وجد : شوق
(٣) ورقاء : حمامة . فنن : الاغصان الرند : اسم لشجر طيب الرائحة .

وقد زعموا : أنّ المحبّ اذا دنا ،
يَملُّ ، وأنّ البعدَ يشفي من الوجدِ ،
بكلٍّ تداوينا ، فلم يشفَ ما بنا ،
على أنّ قربَ الدارِ خيرٌ من البعدِ ،
على أنّ قربَ الدارِ ليس بنافعٍ ،
اذا كان مَنْ تهوه ، ليس بذي وِدِّ ،

خالد والجاريه الدنانير

قال حكم الوادي : دخلتُ يوماً على يحيى بن خالد فقال لي : يا ابا يحيى ما رأيك في خمسماية دينار قد حضرت . قلتُ : ومنْ لي بها ؟

قال : تلقي لحنك في « ذكرتك أن فاض الفراتُ بأرضنا » على ذنانير ، فها هي ذه . وهذا سلام واقف معك ، ومخرجها اليك . وانا راكبٌ الى امير المؤمنين ، ولستُ انصرف من مجلس المظالم الى وقتِ الظهر . فكدّها (١) فيه . فاذا أحكمته فلك خمسماية دينار .

---

(١) الكد الالحاح في محاولة الشيء ، وكده : طلب منه الكد

فقالت دنانير : يا سيّدي : ابو يحيى ، يأخذ خمسماية دينار وينصرف وانا ابقى معك اقاسيك عمري كلّه . فقال لها : إن حفظتهِ فلك الفُ دينار . وقام فمضى ،

فقلت لها : ياسيدتي ، أشغلي نفسك بذا . فانك تهبين لي الخمسماية دينار بحفظك اياه ، وتفوزين بالالف الدينار ، وإلاّ بطل هذا . فلم أزل معها أكدُّها ونفسي ، وتغنيني حتى انصرف يحيى ، فدعا بماءٍ وطست . ثمّ قال : ابا يحيى غنّ الصوت كما كنت تغنيه .

فقلت : هلكتُ ، يسمعه مني وليس هو بمن يخفى عليه ، ثمّ يسمعه منها فلا يرضاه . فلم اجد بُداً من الغناء .

ثمّ قال : غنّيه انتِ الآن . فغنّت .

فقال واللهِ ما أرى إلاّ خيراً

فقلت : جعلتُ فداك ، انا امضغ هذا منذ اكثر من خمسين سنة كما امضغ الخبز ، وهذه اخذته الساعة وهو يذلُّ لها بعدي ، وتجترىء عليه ، وتزداد حسناً في صوتها .

فقال : صدقت . هاتِ ياسلام خمسماية دينار ، ولها الف دينار ففعل .

فقالت دنانير : وحياتك ياسيدي لاشاطرنّ أستاذي الالف

الدينار .

قال : ذلك اليك . ففعلت ، فانصرفت وقد اخذت بهذا الصوت الف دينار . وامّا دنانير فهي جارية كوفية ، صفراء اللوّن في ما نقل الرواة ، عُرفت بحلاوة الحديث وقراءة الشعر وحبّ الادب وكان مولاها الشاعر العباسي « محمد بن كناسة » نشأت في داره وتأثرت بشعره وتعلمت قرض الشعر ولكنّها لم تبلغ به حدّ الجودة فيهتمّ به الرواة، ولم يشتهر امرها الاّ يوم صارت في ملك يمين يحيى بن خالد البرمكي .

وهذا ما يوحي الينا غرام القوم بالسماع ، ويخيّل لي ان الحياة ما كانت عندهم إلاّ أكلاً وشرباً وسماعاً وضربة عودٍ ونقرة دُفّ بين القيان واحضان الجواري .

ويتقاضانا البحث في مثل هذا المقام ان نعرض الى شيءٍ من ذكر لباس القيان وحليهنّ وآلات الطرب التي كنّ يوقعنَ عليها .

الالبسه والحلي وآلات الطرب

كانت البسة النساء تؤلف قميصاً وسربالاً (١) ، والحديثة السنّ تلبس شوذراً وهو ملحفة او برد يشقّ من غير جيب او اكمام . ويضربن برقعاً على وجوههنّ ، وهو خريقة تثقب للعينين فتستر الوجه فقط

البريم : خيطان مختلفان احمر وابيض ، تشدّه الجارية على وسطها وعضدها . وحبل للمرأه فيه لونان مزيّن بجوهر .

البطماح : هو ما كان احد طرفيه محملا او وسطه محمل وطرفاه منيّران

البقيرة : هي كالاتب ، اي قميص واسع دون الملحفة ، تغطي به الجارية ثيابها من فوق

الجُنّة : خرقة تغطي من رأسها ما أقبل وأدبر ، غير وسطه

---

(١) السربال : القميص او الدرع وكل ما يلبس

وتغطي قسماً من الوجه وجنبي الصدر ، وفيها فتحتان للعينين كالبرقع

العصبة : تجعل على الجبين وتعقدُ من الوراء ، وسنعرض لذكرها وما كان يُكتَب عليها .

هذه اشهر الالبسة وكان لهنّ غير ذلك واما الحلي والزينة فهي :

الحلي والزينه

كانت نساء العرب تتزيّن بالخواتم كالرجال وربّما تختمن في اصابعهنّ العشر ، ويلبسن في سواعدهنّ الاساور وفي امثالهم — لو ذات سوار لطمتني (١) —

وكنّ يتزين بالمجول ، ويسمّى ايضاً الاحجال مفردها حجل وهو الخلخال ، من فضة كسوارٍ كبير ، تجعله المرأة في رجليها ، والدملج والدملوج وهو المعضد كالسوار ، يجعل في العضد او المعصم ، وكنّ يتقلدن العقود في اعناقهنّ ، والافراط في آذانهنّ ، ومنهنّ من يجعلن خزاماً في الانف . واما الخضاض

---

(١) المثل لحاتم الطائي : يريد ان لا يقتص من النساء

فهو الشيء اليسير من الحليّ يضرب في نفي الحليّ عن المرأة وفي ذلك قولهم :

ولو أشرفتْ مِن كفّة السترِ عاطلا (١) ،
لقُلْتُ : غزالٌ ، ما عليه خضاض ،

وكان من عادة النساء، ان يخضبن اظافر اليدين بالحنّاء بخلاف اليدين والرجلين ، فان خضابهنّ يكون بلونٍ اسمر مصفر ، ويكتحلن بالاثمد ، ومن عاداتهنّ تذرير الاثمد على شفاههنّ واللثاث اي مغارز الاسنان ، ليشتدّ لمعان اسنانهنّ ، وبهِ يتحصّل لهنّ الوشم الذي يختصصن بهِ غالباً ومنه قول طرفه :

لخولة اطلالٌ ، ببرقةِ ثهمدِ ،
تلوح كباقي الوشمِ في ظاهر اليد،

ومن عادتهنّ إجمار الشعر وترجيله ، وفي اقوالهم : جمّرت المرأة شعرها ، اذا جمعته وعقدته في قفاها .

وكانت القيان وغيرهنّ من النساء يحففن وجوههن لازالة ما عليه من الشعر تحسيناً ، ويزججن الحواجب ، فيُطلنَها الى ذنابى أعينهن ، ويطلين وجوههنّ بالطلاء الابيض والاحمر الى

---

(١) العاطل : المرأة التي ليس عليها حلى

غير ذلك ممّا لا يشار كهنّ به النساء البدويات ، والى ذلك أشار ابو الطيّب المتنبي :

حسنُ الحضارة ، مجلوبٌ بتطريةٍ ،
وفي البداوةِ ، حسنٌ غير مجلوبِ ،

التطيّب

امّا التطيّب فهو عادة قديمة منذ العهد الجاهليّ ، فقد كان لكلّ امرأة «قشوة» طيب اي «قفة» من خوص تجمع فيها المرأة ادوات زينتها .

ومن امثالهم : لا عطر بعد عروس ، وهو مثل يضرب في ذمّ اذّخار الشيء وقت الحاجة ، وقد قالته امرأة من بني عذرة يقال لها اسماء بنت عبدالله ، مات زوجها واسمه عروس ، فتزوّجها آخر وكان أبخر بخيلاً ذميماً ، فأراد ان يطعن بها ، فقال لها : ضمّي اليكِ عطرك .

فقالت : لا عِطر بعد عروس . فذهبت مثلاً .

وكان الطيب مصنوعاً من المسك والعنبر واللبان والكافور والناردين الى غير ذلك من انواع الطيوب التي كانت تنقل من الهند .

آلات الطرب

عندما امتدت رقعة البلاد العربية في الشرق والغرب ، وصار العرب في نضارة من العيش، فتفرّق المغنون من الفرس والروم، فوقعوا الى الحجاز ، وصاروا موالي للعرب فغنّوا بالعيدان والطنابير والمعازف والمزامير ، ومن آلاتهم : الشبّابة ، والزلامى : وهو مزمار مصنوع من قطعتين منفردتين على شكل قصبة جوفاء منحوتة الجانبين ، مثقوبه الجوانب ، ينفخ فيها بقصبة اخرى رفيعة توصل الصوت الى جوفها فيخرج سريعاً والبوق والبربط وهو يشبه العود . والرباب والقانون وغير ذلك ممّا هو معروف الى يومنا هذا . وسمع العرب تلحينهم للاصوات وهو غير ما ألفوه ، فلحّنوا عليها اشعارهم ، وظهر بالمدينة ، نشيط الفارسيّ ، وطويس وسائب حائر مولى عبدالله بن جعفر ،فسمعوا شعر العرب ولحّنوه ، واجادوا فيه ثمّ اخذ عنهم معبد المغنيّ وطبقته،وابن سريج ونظائره ، وما زالت صناعة الغناء تتدرّج الى ان كملت في ايّام بني العبّاس .

واتخذت آلات الرقص في الملبس والقضبان والاشعار التي

بها يترنّم عليه ، وجعل صنفاً وحده ، واتخذت آلات اخرى للرقص تسمّى الكرج ، وهي تماثيل خيل مسرجة من الخشب معلّقة باطراف اقبية يلبسها النسوان ، ويحاكين بها امتطاء الخيل فيكرّون ويفرّون ويثاقفون الى غير ذلك

العصائب وما كتب عليها

امّا العصائب التي كانت النساء تضربها على جباههنّ معقودة الى الوراء ، قد كلف بها الجواري كلفاً شديداً ، فقد كنّ يستهوين القارىء بها .

قيل انه كان لهارون الرشيد جوارٍ ، عصائبهنّ منتظمة بالدّر والياقوت ، مكتوب عليها بصفائح الذهب :

ظلمتني في الحبّ ، ياظالم ، والله فيمابيننا ، حاكم ،

وفي عصابة اخرى :

مالي رميت ، فلم تصبك سهامي ،
ورميتني ، فأصبتني يا رامي ،

وفي غيرها :

وكان في عصابةٍ ، هلالٌ مكتوب عليه :

افلتُ من حور الجنانِ وخُلقت فتنة مَنْ يراني

ومن اخبار اسحاق بن ابراهيم ، انه دخل على الامين محمد بن زبيدة ، وعلى رأسه وصائف في قراطق مفروجة، بيد كلّ وصيفة منهنّ مروحة مكتوب عليها :

لي طاب العيش في الصيفِ وبي طاب السرور ،
بمسكي ينفي اذى الحرّ اذا اشتدّ الحرور ،
النـّـدى والجود في وجهِ امين اللهِ نور ،
ملك أسلمه الشبه واخلاه النظير ،

ومن مراجعة المجاميع الادبية كالعقدِ وعيون الانباء والمحاسن والاضداد وغيرها ، نلمح ان الكتابة على المراوح ولاسيما العصائب قد تبارت به الجواري والقيان ، حتى يندر ان ترى عصابة ليس عليها كتابة كمثل :

ألا باللهِ قولوا ، يا رجالُ ،
أشمسٌ في العصابةِ ام هلالُ ،

أتهوون الحياة بلا جنونٍ ،
فكفّوا عن ملاحظةِ العيون ،

وكتبت وردة جارية « الماهاني » على عصابتها ، وكانت تجيد الغناء مع فصاحتها وبراعتها :

تمّت وتمّ الحسنُ في وجهها ،
فكلّ شيءٍ ، ما سواها محال ،
للناس في الشهر هلال ، ولي ،
في وجهها ، في كلّ يومٍ هلال ،

واخذت من ابن هانىء شاعر الاندلس بيتين كتبتهما على عصابتها وهما :

يا رامياً ، ليس يدري ما الذي فعلا ،
عليك عقلي ، فان السهم قد قتلا ،
أجريته من مجاري الروح مِنْ بدني ،
فالنفسُ في تعبٍ ، والقلبُ قد شغلا ،

ومما اخبر به عليّ بن الجهم قال : خرجت علينا « عالج » جارية « خالصة » كأنها خوط بانٍ ، وهي تميس في ورقه ، وعلى طرتها مكتوب بالغالية ، وكانت « عالج » من مجّان اهل بغداد

مع علمها بالغناء :

يا هـلالاً مـن القصور تجلّى ،
صامَ طرفي لمقلتيك وصلّى ،
لستُ أدري ، أطال ليلي ، أم لا ،
كيف يدري ، بذاك منْ يتقلّى ،
لو تفرّغت لاستطـالة ليلي ،
ولرعي النجوم ، كنت مُخلاّ ،

وقد تخطّى ادب العصـائب الى الاثواب ، من ذلك ما كتبته « منال » وعليها درع خام ، وعلى جانبه الايمن مكتوب :

كتب الطرف ، في فؤادي كتاباً ،
هو بالشوقِ ، والهوى مختومُ ،

وعلى الجانب الايسر مكتوب :

كان طرفي على فؤادي بـلاءٌ ،
إنّ طرفي على فؤادي مشوم ،

وكتبت «شعب» على قلنسوة جاريتها «شكل» :

لم الق ذا شجنٍ ، يبوح بحبّهِ ،
إلاّ حسبتك ، ذلك المحبوبا ،
حذراً عليك وإنني بك واثقٌ ،
ان لا ينالَ سواي منك نصيبا ،

فانت ترى ما في معاني هذه الابيات من استثارة للنفس وتهييج للشعور ، وقد ارادت « شعب » ان تستأثر بحبّ منْ رغبت بهِ ، فجعلت جاريتها «شكل» فخّاً تصيد به ، ونحن نعلم جيّداً ان الجواري كنّ ملكاً للسادة يتصرّفون بهنّ كما يشاؤون ، يتهادونهنّ كسلعة ، وكيف لا يكون ذلك كذلك وهُنّ يُبَعن ويشترَينَ كما تباع السلع والامتعة ، ولم يكن للجواري قانون يحميهنّ كما يظهر ، من ظلم السادة ، إلاّ رحمة السيّد وشفقته وحبّه وعطفه .

وكان الاستمتاع بالجواري على كثرتهنّ داعية الى احتقار المرأة ، وعدم الثقة بها ، والنيل من عفّتها ، ممّا دعا الشعراء الى التحذير منها ، وفي جملتهم ابو العلاء المعرّي ، الذي لم ير في المرأة إلاّ حيّة تنفث السمّ وتخدع بلين الملمس :

وانّما الخود في مساربها كربّة السمّ في تسربها

وهو ينكر اليها الوفاء ويتّهم عفّتها :

فكم بكرتْ تسقي الامرَّ حليلها ،
من الغار او تسقي الخليل رضابها ،

ويذهب الى ابعد من ذلك ويرى ان الرجل مرغم في ان يقبل المشاركة في زوجه :

ترجّى عندها وصلًا ،
رويداً إنّها عارك ،
تخون الأوّل العهـد ،
فخلّ العرس او شارك ،

ولغير شاعرٍ اقوال في النساءِ منها :

توقّوا النساء ، فانّ النساءَ ،
نقصن حظوظاً وعقلًا ودينا ،
وكلّ به ، جاء نصّ الكتاب
واوضح فيه ، دليلا مبيناً ،
فامّا الدليل ، لنقص الحظوظ
فارثهنّ نصف إرثِ البنينا ،
ونصف العقول ، فاجزاؤهنّ ،
بنصف الشهادة ، في الشاهدينا ،

وحسبك من نقص أديانهنّ ،
ما لست تزداد فيه يقينا ،
فوات الصلاة ، وترك الصيام ،
في مدّة الحيض ، حيناً فحينا ،

ومن اقوالهم ايضاً :

رأيتُ الشرّ في الدنيا كثيراً ،
واكثر ما يكون ، من النساء ،
فلا تأمنْ زمانك غدرَ انثى ،
ولو هبطتْ عليك من السماء ،

وما سقنا هذا الاّ لنبيّن ما كانت عليه حال المرأة في تلك الازمنة التي ما كان ينظر اليها الاّ نظر دُمية للرجل تقوم على مسرّته او خدمته وقضاء حاجاته . وما يقال من أنها كانت على شيءٍ من المقام ، تشارك في الاحكام والاعمال المعاشيّة فأقوال تحتاج الى اسناد ، وقد قالوا :

إعص النساء فتلك الطاعة الحسنه ،
فلن يفوز فتىً ، أعطى النسا رسنه ،
يعقنهُ ، عن كمالٍ في فضائله ،
ولو سعى طالباً ، للعلم ألف سنه ،

وما ادب العصائب إلاّ دليل واضح بيّن على ما قدّمنا ، من شأن المرأة ، فما كان مثلها إلاّ مثل ألعبة يعبث بها العابثُ لذّة ، ولو لم تكن المرأة مستضعفة لما تبرّجت وتزيّنت ، وأتت من ضروب الغنج والدلال مايستهوي ويستميل وعلى عصابتها :

مالي رميت ، فلم تصبك سهامي ،
ورميتني ، فاصبتني ، يا رامي ،

أو :

أفلتُ من حور الجنان
وخلقتُ فتنة منْ يراني ،

وممّا كتبته جارية الناطفي على عصابتها :

الكفرُ والسحرُ ، في عينيّ اذ نظرتْ ،
فاغرب بعينيك ، يامغرور عن عيني ،
فانّ لي سيف لحظٍ ، لست اغمده ،
من صنعة الله ، لامن صنعة القين (١) ،

---

(١) القين : صانع السيوف

وامّا « حدائق » ذات الطرف الناعس فقد كتبت على يدها بالحناء :

ليس حسن الخضاب ، زيّن كفّي ،
حسنُ كفّي ، زيّنٌ لكلّ خضاب ،

وحكي ان الجارية « حمدان » كانت تتقلّد سيفاً وتخرج الى القوم وعلى رأسها قلنسوة كتب عليها :

تأمّل حسن جارية ،
يحارُ بوصفها البصرُ ،
مذكّرة مؤنّثة ،
تراها انثى او ذكرُ ،

وكتبت على حمائل سيفها :

لم يكفه سيف بعينيه ،
يقتل مَن شاء بحدّيه ،
حتّى تردّى ، لابساً درعه ،
يخطر فيها ، بينَ صفّيه ،
علمتُ ان السيفَ من طرفه ،
أقتل من سيفٍ بكفّيه ،

عود على بدء

ومن حديث الغناء ، ما نُقل : جاء تميم بن تميم بجارية من بغداد ، رائعة فائقة الغناء ، فدعا بجلسائه ، وقدّمت الستارة ، فغنّت :

وبدا له من بعد ما اندمل الهوى ،
برق تألّق ، موهناً لمعانه ،
يبدو كحاشية الرداء ، ودونه ،
صعب الذرى متمنّع أركانه ،
وبدا لينظر ، كيف لاح ولم يطق ،
نظراً اليه ، وهدّه ، هيجانه ،

فطرب تميم ومن حضر معه ثمّ غنّت :

سَيُسْلِيك عمّا دون دولة مفضلٍ ،
أوائله ، محمودة ، وأواخره ،
ثنى الله عطفيه ، والّف شخصه ،
على البرّ ، مُذْ شُدت عليه مآزره ،

ثمَّ غنَّت صوتاً آخر :

استودع الله ، في بغداد لي ، قمراً ،
بالكرخ من فلك الازرار مطلعه ،

فأفرط تميم في الطرب جداً وقال لها : تمني ما شئت ، فلك مناك ،

قالت : اتمنّى أيها الامير ، عافيتك وسلامتك ،
– والله ، لابدَّ ان تتمني

– على الوفاء أتمنّى ان اغنيَ هذه النوبة ببغداد ، فتغيّر وجه تميم وتكدَّر المجلس

وامر تميم ان تُحمَل الى بغداد ، واصحبها جارية سوداء تخدمها ، ولمَّا وردت القادسيّة ، ارتفع صوتها وغنّت :

لمّا رأينا القادسيّـة ، حيث مجتمع الرفاق ،
وشممتُ من ارض الحجاز نسيم انفاس العراق ،
أيقنت لي ولِمَنْ أحبّ بجمع شملٍ واتفاق ،
وضحكتُ من فرح اللقاء كما بكيت من الفراق ،

فَصاح الناس من طرف القافلة : أعيدي بالله ، فلم يسمعْ لها

كلمة ، ولما صارت على قيد اميالٍ من بغداد ، اختفت بين الركب ، ولم يسمع لها بخبرٍ .

من اغانيهن

لأبي العبّاس محمّد بن يزيد المبرد صاحب « الكامل »

حبّذا ماء العناقيد بريق الغانيات ،
بهما ينبتُ لحمي ودمي ايَّ نبات ،
أيُّها الطالب اشهى من لذيذ الشهوات ،
كلْ بماء المزن تفتّاح خدود الفتيات ،

الغناء في الاندلس

وامّا الغناء في الاندلس ، فقد جاء به غلام من الموصل اسمه زرياب ، لحق بالحكم بن هشام بن عبد الرحمان ، امير الاندلس فبالغ في تكرمته ، وركب للقائه ، واسنى له الجوائز والاقطاعات والجرايات ، وأحلّه من دولته وندمائه بمكان فأورث الاندلس من صناعة الغناء ما تناقلوه الى ازمان الطوائف وعنه اخذت

مغنيات الاندلس وجواري القصور ، وقد ساعدت الموشحات على الغناء ، ومن الحكايات المرويّة ، ما ينقل عن الفيلسوف ابي بكر بن باجه ، انه حضر مجلس مخدومه ابن تيفلويت صاحب سرقسطه ، فالقى على بعض قيناته موشحته :

لازمه

جرّ الذيل ، أيمّا جرّ
وصل الشكرَ ، منك بالشكر

دور

خضّب الرند منك باللهب ،
من لجينٍ ، قد حفّ بالذهب ،
تحت سلك كجوهر الحبيب ،
مع أحوى واعذب الشنب ،
اودعت كفّه ، من السحر ،
جامد الماء وذائب التبر ،

دور

هاك نور الصباح قد لاحا ،

ونسيم الرياض قد فاحا ،
فتأهب وشمّر الراحا ،
لا تَقدْ في الظلام مصباحا ،
حين تنهلّ أدمع القطر ،
فعلى الروض ناسم عطري ،

دور

فهموم راحت بأفراح ،
في مساء وعند إصباح ،
والغوادي ، تجود بالراح ،
وهي تسقي الرُّبى بأقداح ،
وقدود الاغصان بالسكر ،
تتثنّى في غلائل خضر ،
قد جنت لي احسن الزهر ،
جذوة ، عنبريّة النشر ،
عقد الله ، راية النصر ،
لامير العلا أبي بكر ،

فلما طرق ذلك التلحين سمع ابن تيفلويت ، صاح واطرباه وشق ثيابه وقال : ما أحسن ما بدأت وختمتَ وحلف بالايمان المغلّظة ، ان لا يمشي ابن باجه الى داره إلاّ على الذهب، فخاف الفيلسوف سوء العاقبة ، فاحتال ، بان جعل ذهباً في نعله ومشى عليه .

وما يدلنا على ان صناعة الغناء في الاندلس لم تقلّ عمّا كانت عليه في المشرق ، ما ذكره ابو الوليد بن رشد في تلخيصه كتاب ارسطو في الشعر قال : « والمحاكاة في الاقاويل الشعرية ، تكون من قبل ثلاثة أشياء ، من قبل النغم ومن قبل الوزن ومن قبل التشبيه نفسه . وهذه قد يوجد كل واحدٍ منها مفرداً عن صاحبه، مثل وجود النغم في المزامير والوزن في الرقص والمحاكاة في اللفظ »

هذا ما وقع لي من ادب المغنيات اثبته في هذه العجالة وهو ما ظفرت به اثناء مطالعاتي فعسى ان اكون قد قدّمت ناحية من هذا الادب الطريف ومهدت الطريق لمن يرغب في بحثه بحثاً علمياً يستوفيه من كل جوانبه ونواحيه ، فان مجال القول فيه ذو سعة لمن رغب في التقميش والتنقيب .

ومن أغانيهنّ ما يأتي :

لابن زيدون :

متى أبثك ما بي ،

يا راحتي وعذابي ؟

متى ينوب لساني ،

في شرحه عن كتابي،

اللهُ يعلم أني ،

اصبحت فيك لما بي ،

فلا يطيب منامي ،

ولا يسوغُ شرابي ،

يا فتنة المتعزّي ،

وحجـــة المتصابي ،

الشمسُ انت توارت ،

عن ناظري، بالحجاب،

ما البدرُ شفّ سناه ،

على رقيق السحاب ،

إلاّ كوجهك لمّا ،

أضاء تحت النقاب ،

***

لابن خفّاجه :

ونـديّ أُنس هزّني ،
هزّ الشراب من الشباب ،
والليل وضّاحُ الجبينِ ،
قصيرُ أذيال الثياب ،
فقنصتُ منهُ حمامةً ،
بيضاءَ تسنحُ منْ غُراب،
والنورُ مبتسمٌ ، وخدّ الورد محطوطُ النقاب ،
يندى بأخلاق الصحاب هناك لا بندى السحاب ،
وكلاهما نثرٌ ، كما نثروا القوافي بالخطابِ ،
فكأنّ كأس سلافةٍ ضحكت ،إليهم عن حباب،

وقد رأى ابن خلدون ، ان صناعة الغناء آخر ما يحصل في العمران من الصنائع ، لانها كمالية للفراغ واللهو والطرب ، وهي كذلك آخر ما ينقطع العمران عند اختلاله وتراجعه بحوادث الايام .

هذا ما وقع لي من اخبار بعض المغنيات اللواتي تلاعبن في قلوب الخلفاء والامراء ، وهنالك جوارٍ عاشقات كنعمى ونفوسة وتحفة الزاهدة وغيرهنّ لم اتعرض لذكرهن ، لا ، لانهنّ لم يتصلن

بقصور الخلفاء ، ولكن لما في اخبارهنّ من مطارحات غرامية لا يحسن بهذا الكتاب عرضه . ومن خبر نعمى انها عشقت فتى سمع غناءَها في قولها :

عرضت على نفسي العزاءَ فقيل لي
من الآن فايأسْ لا اعزك من صبرِ
اذا بانَ من تهوى واصبح نائياً
فلا شيء أجدى من حلولك في القبرِ

فما انتهت من غنائها حتى القى بنفسه من النافذة فمات ، والقت هي نفسها في حفرة ماءٍ عميقة وقالت :

من مات عشقاً فليمت هكذا
لا خير في عشقٍ بلا موت

الحقوق محفوظة للمؤلف

مراجع البحث

العقد	لابن عبد ربّه
الاغاني	للاصفهاني
ـ المحاسن والاضداد القيان	للجاحظ
الكامل	لابي العباس المبرد
مقدمة ابن خلدون	
المستطرف في كل خبر مستظرف	للابشيهي
ـ التمدن الاسلامي	لزيدان
ـ صناجة الطرب	لنوفل افندي نوفل
وغيرها	الطرابلسي

تصويبات

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٠	١٤	شيئاً	شيءٌ
٢٧	٧	حباية	حبابة
٦٥	٦	تهوه	تهواه
»	٧	الدنانير	دنانير
٦٩	١٤	الافراط	الاقراط
٧٧	١٨	اليها	عليها

فهرس

صفحة	المحتويات
٥	ادب المغنيات
٩	العصر الجاهليّ
١٢	العصر الاموي
١٧	الحكم في الغناء
١٩	رأيهم في الغناء
٢٠	تقسيم السماع
٢٧	يزيد وحبابه
٣١	حبابه وسلامه
٣٣	موت حبابه
٣٥	المغنية مليحه
٣٩	عبدالله الملقب بالقس وسلامه
٤٠	ابن ابي عتيّق
٤٤	الزلفاء
٤٨	العصر العباسي

٥٢ من اغانيهنّ
٥٤ - القيان في القصور
٦٢ باب الذهب
٦٣ من اغانيهنّ
٦٥ خالد والجارية دنانير
٦٨ - الالبسة والحلي والآلات
٦٩ - الحلي والزينة
٧١ - التطيّب
٧٢ آلات الطرب
٧٣ - العصائب وما كتب عليها
٨٢ عود على بدء
٨٤ من اغانيهن
٨٤ الغناء في الاندلس

احدث مطبوعات دار الثقافة

غ . ل .		
١٥٠	الحب العذري (طبعة ثانية منقحة)	موسى سليمان
١٠٠	سالومى (اوسكار ويلد) ترجمة	سمير شيخاني
١٠٠	انانية الالهة (قصة من الحياة)	عادل يزبك
٢٠٠	من الجراب (ادب ونقد)	مارون عبود
١٠٠	قاهر الموت (وقصص اخرى)	البير مفرج
٧٥	لم يذهب مع الريح (قصة عربية)	رشاد دارغوث

تحت الطبع

قدماء وجدد — لمارون عبود

احدث كتاب في النقد

تطلب هذه الكتب مع كافة الكتب العربية من

دار الثقافة ببيروت

تلفون ٣٥–٦٧ ص.ب. ٥٤٣

شهرزاد في

ليالي الف ليلة وليلة

الموسوعة العربية الخالدة

يصدرها مكتب المراسلات الدولية

ودار الثقافة ببيروت

مزينة بالصور والرسوم الفنية

١٠٠ صفحة بـ ٥٠ قرشاً

اطلبها من المكتبات والباعة ومن الناشر

دار الثقافة بيروت

السور – بناية الغراوي – ص.ب. ٥٤٣

تم طبع هذا الكتاب على مطابع « الحرية »

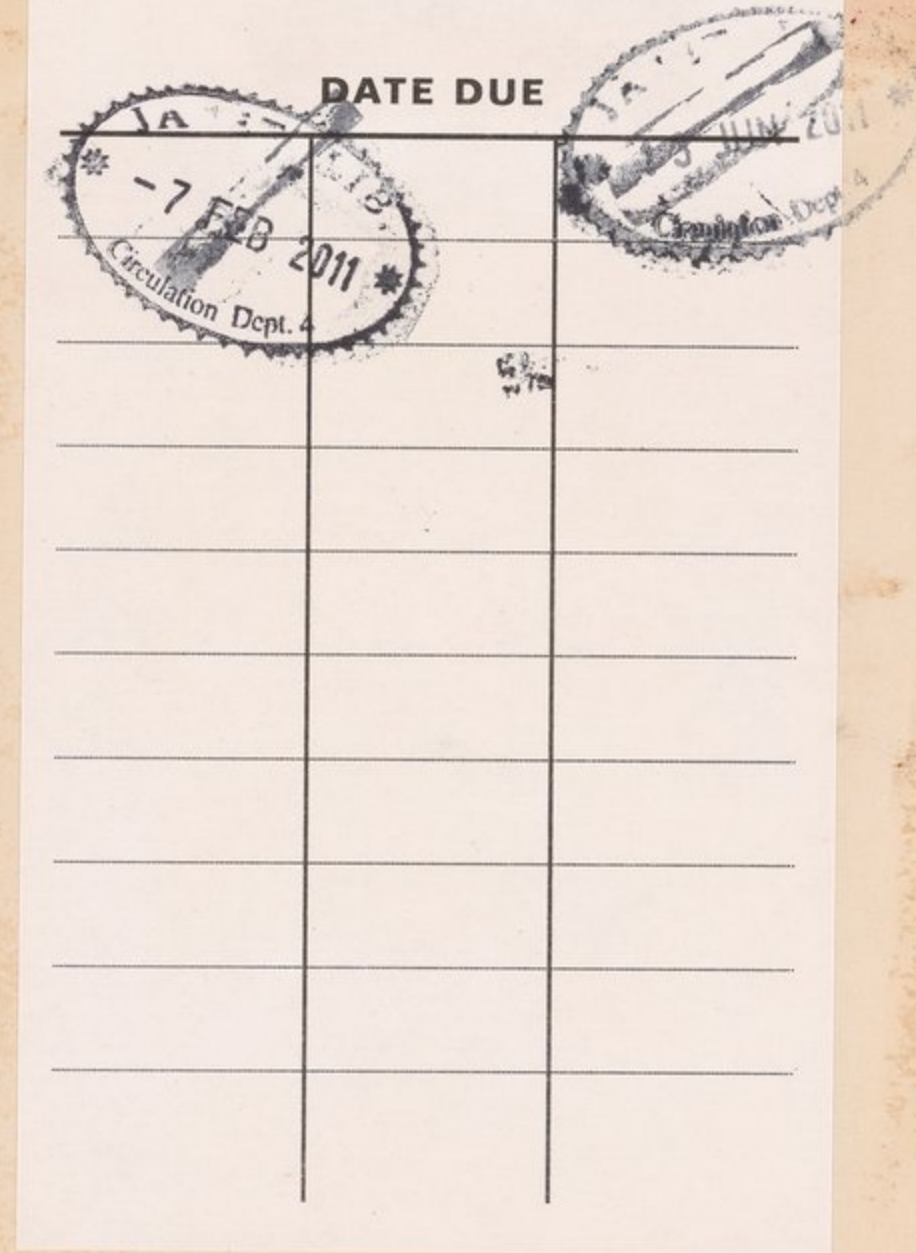
DATE DUE
-7 FEB 2011
Circulation Dept.
Circulation Dept.

سابا ،عيسم ميخائيل
المغنيات في الادب العربي
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01034851

American University of Beirut

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
UT VITAM HABEANT ABUNDANTIUS HABEANT
1866

General Library

892.709
S113muA